لقيا جبريل
عليه السلام

مجموعة قصصية من صحيح السيرة النبوية

إعداد
يحيى بن زكريا بخاري

ح دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٣٩ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بخاري، يحيى زكريا إسماعيل

لقيا جبريل عليه السلام مجموعة قصصية من صحيح السيرة النبوية/ يحيى زكريا إسماعيل بخاري ـ الرياض، ١٤٣٩هـ

١٥٧ص؛ ١٤× ٢١سم

ردمك: ٧- ٧٩- ٨٠٧٣- ٦٠٣- ٩٧٨

١ - القصص الإسلامية أ. العنوان

ديوي ٨١٣، ٠٨٧٣ ١٤٣٩/١٠٤٧١

رقم الإيداع: ١٤٣٩/ ١٠٤٧١

ردمك: ٧- ٧٩- ٨٠٧٣- ٦٠٣- ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ

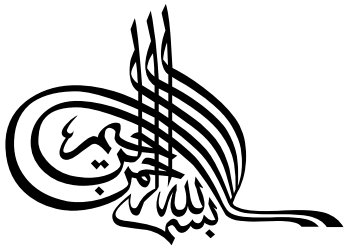
بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

نزلَ جبريلُ عليه السلام إلىٰ النبيِّ ﷺ فقالَ لهُ: «**أَلاَ تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟**» [البخاري- ٣٢١٨]

لقدِ اشتاقَ الحبيبُ ﷺ إلىٰ جبريلَ عليه السلام

غرَسَ الشَّوقُ جُذورهُ في قَلبِه

وأوغلَ الحنينُ أوتادَه في فُؤادِه

يشتاقُ أعظم البشر ﷺ إلىٰ أكرمِ الملائكةِ جبريل عليه السلام

يرفُّ قلبُه

وتهفو نفسُه

وتتوقُ روحُه

إنَّهُ رفيقُ النبي ﷺ، وناقلُ الوحيِ إليه من الله سبحانه

لقيا مباركة امتَدَّت...

منذُ أن شقَّ جبريلُ عليه السلام صدرَ النبيِّ ﷺ في طفولتِه

حتىٰ الوداعِ الأخيرِ مع موعدِ رحيلهِ ﷺ عن هذهِ الدَّار

قصَّةٌ لا تُنسىٰ

وروايةٌ لا تُمحىٰ

وذكرياتٌ عبقةٌ تنتشي بها قلوبُ المؤمنين

اشتاقَ النبيُّ ﷺ إلىٰ مُعلِّمِه، ومُلهِمه، ومُرشدِه، ومُؤنسِ قلبِه، ورفيقِ دربِه

فكانَ الردُّ بقولِه : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤]

إنِّي وإنْ كنتُ أحبُّكَ إلا أنِّي عبدٌ مأمور، ما نتنزَّلُ إلا بأمر العظيمِ سُبحانه

يأمرُ اللهُ... فينزلُ جبريل عليه السلام بالخيرات

يأمرُ اللهُ... فيأتي جبريل عليه السلام بالبِشَارَات

يأمرُ اللهُ ... فيجيء جبريل عليه السلام بالتَّشريعات

وجبريلُ عليه السلام وإنْ لم يَنزل أحيانًا

ولم يأتِ أيامًا

إلا أن ذلكَ بأمرِ الله

اللهُ جلَّ جلاله...

يأمرُ جبريلَ عليه السلام فينزل

بأفضلِ كتاب

وخيرِ دين

وأعظمِ رسالة

إنَّها أعوامٌ كريمةٌ مباركة، يلتقي فيها...

أكرمُ الملائكة جبريل عليه السلام بأكرمِ الخلقِ ﷺ

لقيا كريمةٌ مباركة...

نتلمَّسُ تفاصيلَها

نسبرُ عُمقَ تشريعِها

لنتَّعظَ بمواعِظها

ونتَدَبَّر مواقِفَها

ونقتبسَ من نورِ هِدايتِها

نحملُها زهرًا نديًّا، لتُوافينا عَرفًا زكيًّا، وتُولينا أُنسَها نجيًّا

(١)

فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ

هناك...

بعيدًا عن أعينِ محبّيه

بعيدًا عنْ قرابتهِ وذويه

وهو ينوء بثقل الغربة والبُعد عن أمه ﷺ

كان يكبر في البادية

هناك...

في بادية مرضِعَته حليمة السعدية[١]

هـا هـو ﷺ طفـلًا صـغيرًا يرتـعُ في فَلَـواتِ[٢] الباديـة بعـد أن أرسلته أمّه إليها علىٰ عادةِ العربِ في إرسالِ أبْنائِهم إلـىٰ الباديـة اتقـاءً

(١) حليمة بنت أبي ذؤيب، مرضعة النبي ﷺ كَانَتْ تَحْتَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّىٰ. انظر الإصابة (٨/ ٨٨).

(٢) الفلاة: الأرض الواسعة المقفرة.

لأمراضِ المُدن! وَوَضرِ[١] الحاضرة.

فقد كان العربُ يتركون أولادَهم في فيافي البوادي لتصحَّ ألسِنتُهم، وتقوىٰ أجسادُهم، وتتفتّق أذهانهم، وينطلقون في مظاهرِ الطبيعةِ يقتفون آثار القوّةِ والشجاعةِ

هناك...

في تلك الباديةِ البعيدةِ كانَ ﷺ يعيش

هناك...

كان الموعد مع جبريل عليه السلام لأول مرة

هناك...

كان اللقاء الأول بين أعظم مَلَكٍ عليه السلام وأعظم رسول ﷺ

هناك...

يلتقي جبريل عليه السلام بالنبي ﷺ لأول مرة

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ

(١) وضر: الوَضَرُ: وسخ الدَّسَم واللبن.

هناك...

استخرج القلب؟!

استخرج القلب حقيقةً وصدقًا

ولكن... لماذا؟ ماذا يريد؟

«فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ(١)، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَىٰ أُمِّهِ ـ يَعْنِي ظِئْرَهُ(٢) ـ فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ(٣)» [مسلم - ٢٦١]

هناك...

في أوّلِ لقاءٍ جرتْ هذه الحادثةُ العظيمة:

حادثةُ شقِّ صدرِ النبيّ ﷺ في المرة الأولىٰ وإخراجِ حظِّ

(١) لأم الجرح أي ضمده وأصلحه.
(٢) الظئر هي المرضعة.
(٣) أي متغير اللَّوْن.

الشيطان من قلبه ﷺ

هذا اللقاءُ العظيم

والحدث الجسيم

هناك...

كانت لُقيا النبي ﷺ مع جبريل عليه السلام

في لقاء قد امتلأ حكمةً وفاض نورًا وعبرةً

هناك...

مع جبريل عليه السلام كان أول لقاء، وفي لقاءٍ لا يُنسىٰ للنبي ﷺ

في لقاء حفظته البشرية ووعاه التاريخ

هناك...

خاطب جبريل عليه السلام محمدًا ﷺ وهو غلامٌ صغير لم يجاوز الرابعة من عمره قائلًا: «**هذا حظُّ الشيطان منك**»

هناك...

مع جبريل عليه السلام كان تطهيرُ قلبِ النبي ﷺ

قلب أعظم رجل ﷺ

ويغسله أعظمُ مَلَك وهو جبريل عليه السلام

ويغسله بأطهر ماء وهو ماء زمزم

هناك...

قام الغلام الصغير ﷺ

ولمْ يكُن يعلمُ أنَّ هذا الذي خاطبهُ سيكونُ رفيقَ دربهِ طيلةَ نبوَّتهِ في ثلاثةٍ وعشرين عامًا، وهذا الرجل الذي رآه ما هوَ إلا مَلَكٌ سيأتيه بعد سنوات ليضُمَّه ويقول له: ﴿اقْرَأْ﴾

انتهىٰ اللقاء ولم تنتهِ القصةُ بعد..

هرَعَ الصبيانُ إلىٰ مرضعته حليمة السعدية بالخبر

تخرجُ مرضعتُه حليمة السعدية وزوجها يبحثان عنه ﷺ

يجرّانِ الخطىٰ في كل مكان خوفًا عليه ﷺ

يسرعان في البحث عنه بقلوب رحيمة خشية أن يصيبه شيء

فوجداه متغير اللون من أثر اللقاء المفاجئ

خافا عليه، ولم يعلما بأنه لم يمسه ضرر

خافا عليه، ولم يعلما بأنه للتو خرج من لقاء أعظم مَلَك جبريل عليه السلام

خافا عليه، فقررا إرجاعه إلىٰ أمه بمكة

قال ﷺ حاكيًا ذلك: «فَأَشْفَقَتْ عَلَيَّ أَنْ يَكُونَ أُلْبِسَ بِي، قَالَتْ: أُعِيذُكَ بِاللهِ، فَرَحَلَتْ بَعِيرًا لَهَا فَحَمَلَتْنِي عَلَىٰ الرَّحْلِ، وَرَكِبَتْ خَلْفِي حَتَّىٰ بَلَغْنَا إِلَىٰ أُمِّي، فَقَالَتْ: أَوَأَدَّيْتُ أَمَانَتِي، وَذِمَّتِي؟ وَحَدَّثْتُهَا بِالَّذِي لَقِيتُ، فَلَمْ يَرُعْهَا[1] ذَلِكَ».

لم تخَفْ أمُّه ﷺ من هذا اللقاء، ولم يرعْها ما حصلَ له ﷺ، فقد كانت مطمئنة القلب، مستبشرة به خيرًا

وهكذا كانت حادثة شق صدر النبي ﷺ ظاهرها ضررٌ وقع بالنبي ﷺ، وباطنها رحمة وسكينة وطمأنينة وتطهير لقلبه ﷺ

وهنيئًا...

لمن طهر قلبه من درن الشبهات ولوث الشهوات حتىٰ ينال من الحكمة والطمأنينة

(١) الرَّوْع والرُّواع: الفزع، راعني الأمر يرُوعُني. لسان العرب (روع).

وهنيئًا...

لمن أنقىٰ سريرته من الشك والرياء والنفاق حتىٰ يستلهم الهداية والنور

وهنيئًا...

لمن طهر فؤاده من الغل والحقد والبغضاء حتىٰ يبدله الله راحة وعفوًا وصفحًا

وقد بقي أثر شق صدر النبي ﷺ زمنًا طويلًا حتىٰ إن أنسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقول: «وَقَدْ كُنْتُ أَرَىٰ أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ». [مسلم- ١٦٢]

أبْقىٰ اللهُ آثارَ ذلك اللقاءِ العظيم

لقاءُ أعظمِ رسولٍ ﷺ مع أعظمِ مَلَك جبريل عليه السلام

هناك...

حيث البذرة الأولىٰ لنور هذه الرسالة

تلك اللقيا الأولىٰ كانت...

بداية قصةٍ طويلة امتدّت ثلاثة وعشرين عامًا...

سيعيشُ الكونُ

يتتبع أخبارها

ويتعلَّمُ من آثارها

ويَنهَلُ من مَعينِ عِلمها

(٢)

اقْرَأْ

كانتِ اللَّيالي حَالكةُ السَّواد
وكَانتِ الأرضُ تئِنُّ من وطأةِ الظلام فيها
كانتِ الدُّنيا تعجُّ بالطغيان
تُقامُ الحروب
تُسفكُ الدِّماء
تُؤَطِّدُ الممالكُ والامبراطوريَّات علىٰ أكتافِ الأبرياء
وكانَتْ مكة ...
في قلبِ العالم تغرقُ هي الأخرىٰ في وحلِ الآثام!
هُنا في مكة المكرمة ... وعند الكعبةِ المُشرَّفة
اصطفَّت الأصنام
وراجت الآثَام
كؤوسُ الخمرِ تقرعُ بينَ جَنَباتها
البغايا تَطوفُ علىٰ عرَصاتِها
البناتُ عندَ الولادةِ تُوأد

والأمْوالُ من الضُّعفاءِ والغرباء تُغصب

والجاهليَّة تتفشَّىٰ وتَنتشي، بل تحكُمُ وتجثُم

وفي دياجِي تلك السُّحب القاتِمة...

وبينَ رُكامِ المظالمِ المُتراكمة...

هناك نورٌ يبرُق، هناك ضياءٌ يُتراءىٰ، هناك خيوطُ فجرٍ صادقٍ تتسلَّلُ حتىٰ تُغيرَ من وجه الظلام والظُّلمات!

كانتِ الحياةُ قبل بعثةِ النبيِّ ﷺ حياةً جاهليةً غارقةً في الظُّلم والشِّرك والفساد

أوغلَ الناسُ في الشَّرك، وأمعنوا في الوثنيَّة، وغرقوا في المنكرات حدَّ الثُّمالة!

قامَ سوقُ الجاهلية علىٰ النَّهبِ والسَّلبِ والعدوان

وتلطَّخت ألوانُ الحياةِ بسفكِ الدِّماء، وامتهانِ النِّساء، ووأدِ البنات

حتىٰ أنّ الله جلَّ جلاله «**نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ**[1] **عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**» [مسلم- ٢٨٦٥]

(١) المقت: شدة البغض.

ينظرُ اللهُ في تلكَ الفترةِ إلىٰ أهل الأرض كلهم فيَمقُتُهم عربهم وعجمهم إلَّا بقايا كان معهُم قبسٌ من كتابٍ ونورٍ من أنبياء سابقين، كانت معهم هدايةٌ موروثة

في خِضمِّ هذه الصفحةِ السوداء، ووسط عُبَابِ هذا الظلام

كانَ هناكَ لقاءٌ غيّر معالمَ البشرِيَّة، وَأنارَ وجه هذه الدنيا!

كانَ هذا اللقاءُ بمثابةِ شمعةٍ أُوقدت في وجهِ قتامة ذاكَ الزمان!

كانَ هذا اللقاءُ منارةَ هدايةٍ وسط أمواج الفتنِ والضّلال

كانَ اللقاءُ الذي غيَّر من حضارةِ هذه الأمة، اللقاءُ الذي انتشل العالَم قبل أن يسقط في الهاوية

إنهُ لقاءٌ منتظرٌ منذ أمدٍ بعيد!

كانَ ينتظرُه الرهبانُ والأحبار

كانَ ينتظره اليهود والنصارىٰ

كانَ ينتظره من أوتي قبسًا من نورِكتابٍ سابق

ولكنْ...

يَحدُثُ اللقاءُ حيث لم يحتسب أحد

يحدُثُ اللقاء في قلبِ العالمِ النابض، علىٰ مقربةٍ من البيتِ المطَهَّر الذي بنتهُ الملائكة الكرام، ورفعهُ إبراهيمُ عليه السلام، في مكة المكرمة وفي قمة جبل من جبالها الشمَّاء

كانَ هناكَ الوعدُ الموعود، واللقاءُ الذي كان نورًا أنارَ دياجيرَ هذه الأرض

فاسمع إلىٰ هذا اللقاء وتفاصيلِه من روايةِ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث تقول:

أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ ــ وَهُوَ التَّعَبُّدُ ــ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا

حَتَّىٰ جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ

فَقَالَ: **اقْرَأْ**

قَالَ: **مَا أَنَا بِقَارِئٍ**

قَالَ: **فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ**

قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ

فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي،

فَقَالَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق: ١-٣]

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: «**زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي**» فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي**»

فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ

فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّىٰ أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّىٰ ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ

فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمٍّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَىٰ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَىٰ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ**»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ» [البخاري - ٣]

إنهُ أعظمُ لقاءٍ بين أكرمِ الملائكةِ وأعظمِ البشر!

إنه اللقاءُ الذي رجَفَ من أجلهِ قلبُ النبيِّ ﷺ لترجُف الدنيا بأسرها بعده

إنه اللقاءُ بينَ جبريلَ عليه السلام ونبينَا محمّدٍ ﷺ

هناكَ حيثُ كانَ النبيُّ ﷺ يتعبَّدُ في غارِ حراء، هربًا من ثقل الحياة في مكة، وقتامة العيش فيها بين الأصنام والآثام، والظُّلمِ والطُّغيان، كانت نفسُ النبي ﷺ السَّويَّة تأبىٰ الشرك، وتنفرُ من الخمر، وترفُضُ الظلم، فكان يخرجُ عن قومه هناكَ يغوص في سُبُحات السماء، يتأملُ دُجُنات الليالي الحالكة، يرسلُ قلبَه في روابي التفكُّر والتدبُّر

هناكَ يأتيهِ جبريلُ عليه السلام في ذلك الغارِ المظلم، هناك حيث النبيُّ ﷺ وحدهُ يتعبَّد أتاه جبريل عليه السلام بالوحي، تنزَّل عليه بالنُّور، جاءهُ بفجرِ أملٍ للدُّنيا بأَسرِها

هناك جاءه جبريلُ عليه السلام فقالَ للنبي ﷺ: اقرأ!

فقال عليه الصلاة والسلام: ما أنا بقارئ!

فكرر عليه جبريل عليه السلام وهو في كل مرة يضمه حتىٰ يبلغ منه الجهد، فلمَّا كانت المرة الثالثة أوحىٰ إليهِ بالآياتِ الكريمة، أوحىٰ إليه بكلامٍ ليس هو من كلامِ البشر، أوحىٰ إليه بكلام رب الأرض والسموات فقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ - ٥]

ذُعِرَ(١) النبي ﷺ من الموقف، وفَرِقَ(٢) خوفًا وخشية، فانطلَق مسرعًا إلىٰ وديعةِ أسراره، وحليلةِ قلبه، وأنيسَةِ عمره، إلىٰ زوجته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأخبرها، فما كان من الزَّوجةِ الصالحة

(١) الذعر هو الدهشة المصاحبة للخوف.

(٢) خاف وفزع.

الحكيمةِ الرَّشِيدةِ إلا أن طمأنَتْ قلبَه، وأسكَنَتْ فُؤاده، وهدَّأت روعَه، وقالت في ثقةٍ مطلقة: لن يخزيك الله أبدًا!

لن يخزيك الله أبدًا... وأنتَ بهذه الأخلاق الحميدة، والصفاتِ النبيلة، والخصال الكريمة، فكيف يضيعك الله؟!

أخذت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بيده ﷺ فانطلقت به إلىٰ ورقة بن نوفل وكان معهُ شيئًا من الكتاب، ولمَّا أخبره بالخبر، دوَّىٰ بالحقيقة الواضحة، إنَّك نبيٌّ من الأنبياء، وإن ما نزل عليكَ هو ما نزل علىٰ موسىٰ عليه السلام، وإنَّك ستُخرج وتُؤذىٰ، وما ذاكَ إلا تهيئةً من اللطيف الخبير حتىٰ يتقبَّلَ ﷺ ما سيُلاقيه من وصبٍ ونصبٍ وتعبٍ وضيرٍ في سبيل إبلاغ هذه الدعوة، وفي طريق نشرِ هذهِ الرِّسالة، ومن أجلِ بثِّ هذا النُّورِ والخيرِ للبشريَّةِ جمعاء

كان هذا هُو اللقاءُ الأول معَ الوحي

لقاءٌ غيَّرَ من تاريخ الأمم، ورفَعَ من حضارة البشريَّة، وخلَّص من وحل الشرك والظلم والفساد

هاهيَ شمسُ الإسلامِ تُشرقُ من هذا الغَارِ علىٰ هذه الأُمَّة الراتِعَةِ[1] في ظُلمة الجهل، والغائبةِ في دركاتِ التاريخ، والمقيَّدةِ بأَغلالِ الطُّغيان

(١) يرتع أي يلهو ويلعب.

والفساد، والقابعةِ في ذيل الحضارات

هاهيَ أنوارُ الله تتنَزَّل، هاهو كتابُ الله يهبطُ مع جبريلَ عليه السلام من ملكوتِ السَّماء إلىٰ الأرض

مَعَ جبريل عليه السلام كانَ لقاءُ الوحيِ الأول في تاريخ البشرية الجديد معَ خاتم النبوَّات والرسالات، فجاءَ بنورٍ نزل علىٰ قلوبٍ ميتة فأحياها، وعلىٰ نفوسٍ متفرقة فجمَعَها، وعلىٰ أفئدةٍ متصدعة فألأمها

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨]

معَ هذا اللقاءِ سطَعَت نورُ النبوة، وأشرقَ سنَا الإسلام، وتبلَّج ضياءُ هذا الدين

مع هذا اللقاءِ...

تحرَّكت قلوبٌ كانت ميتة

ونفوسٌ كانت غارقة في لُجج الآثام

وأرواحٌ أنهكتها الوَثنيَّةُ وعِبادةُ الأصنام

فجَاءَ هذا الدين ليُحرِّرهم من هذه الأغلال، ويخرجهم من الظُّلمات إلىٰ النور

في هذا اللقاء معَ جبريل عليه السلام آذنَ الله ببعثة النبي ﷺ حتىٰ يَكشِفَ معالمَ الطريق للبشر، ويَرسم سبلَ النُّور، ويوضحَ طُرق النجاة، ويَنفخ روحَ الحياة من جديدٍ في هذه الأُمة...

فأشرقت وتلألأت، وأنارت وأبصرت، وصارت شامة بين الأمم بإيمانها وإسلامها وهدايتها

تلكَ الأُمَّة التي كانت تقبع في دياجي الظُّلم صارَت اليوم تَرفعُ رايةَ العدل، وتبسطُ بساط الحق، وتتصدَّرُ حضاراتِ الأمم، وتغيِّرُ من وجه الدنيا

معَ هذا اللقاء جاءَ جبريلُ عليه السلام بهذهِ العقيدة الصافية، فأضاءَت للناس قلوبهم المظلِمة، وأزالَت عنهم أحجبة الشِّرك، وأروتْ قلوبَهم من ماءِ الإيمان النَّمير[1] وصارت هذه الأمَّةُ خيرَ أمَّةٍ أخرجت للناس، وخرجَ ذلكَ الجيلُ المباركُ الذي لم يُعرف مثله قط علىٰ مرِّ التاريخ تضحيةً ويقينًا وإيمانًا وصفاءً وحُسنَ خلقٍ

(١) النمير من الماء هو الطيب الناجع حلو المذاق.

وصفاءِ قلب

مع هذا اللقاء خَرج نورٌ أضاءت له قلوبُ المشركين، ورفعَ من هذه الأمة القابِعة في وحل التخلف، وانتشَلَها من طينة الظلم والطغيان إلىٰ أن تكون أمة متحضِّرةً تنيرُ للعالم طريقها في كلِّ المجالات، أمة ابتعثها الله لتخرج من شاء من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلىٰ سعةِ الدنيا والآخِرة، ومن جَور الأديان إلىٰ عدل الإسلام

كانَ هذا اللقاءُ المبارك انطلاقة حضارةٍ عالميةٍ مفعمةٍ بالسَّلام والأمنِ والأمانِ والإيمان

كانَ مبعث دين عظيم عرَفهُ القاصي والداني بصفائهِ ونقائِه ونورِه

كانَ توطيدُ دعائِم رايةٍ ظلَّت خفاقَة في السماء حتىٰ يومنا هذا وسَتبقىٰ إلىٰ أن يرث الله الأرضَ ومنْ عليها

معَ جبريل عليه السلام كان اللقاء الأولُ في إنزال الوحي

ذلك اللقاءُ الذي كان مبعث خيوطِ فجرٍ صادقٍ تسلَّلَ في جنَباتِ الدنيا فأنار لها الطَّريق لتغير من حالها

هذهِ اللقيا المُباركة امتدت طيلةَ ثلاثةٍ وعشرينَ عامًا كان فيها جبريلُ عليه السلام مرافقًا للنبي ﷺ، كان معلمًا مرشدًا ملهمًا موجهًا معاونًا مواسيًا

مع جبريل عليه السلام نزلت أولىٰ الآياتِ علىٰ نبينا ﷺ ومَعَ جبريل عليه السلام اكتَمَل هذا الدِّين

مع جبريل عليه السلام عاشَ المسلمون أيامًا نضرَة، كان ينزل لهم بالبِشارات ويجيئهم بالخيرات، وظلَّ جبريل عليه السلام يأتي بالخبرِ من السماء حتىٰ انقطع نزولهُ عليه السلام بموتِ النبي ﷺ.

وما بينَ اللقاءِ الأول والنظرةِ الأخيرة سنواتٌ خيِّراتٌ نيراتٌ، رُفعت فيها رايةُ الإسلام، وأزيلت غِشاوات الكفر والطغيان، وغُرست في الأرض شجرةٌ باسقةٌ تُظللُ الناس بظلالها إلىٰ يوم الدين.

(٣)

جبريل على صورته

جبريل عليه السلام...

أكرمُ الملائكة، وأعظمهم رتبة عند الله

جبريل عليه السلام...

مَلَكٌ عظيم اختصه الله بما فيه حياة القلوب فوكّله بالوحي، وأسندَ إليه تنزيل الأوامر والشرائع، فهو الناقل لكلام الله تعالىٰ، النازلُ بأوامره، المبلغُ شرائعه

جبريلُ عليه السلام....

روحُ القدس، ورفيقُ الأنبياء

جبريلُ عليه السلام...

وصفَهُ القرآن الكريم بأجملِ الأوصاف، وأحسنِ الصفات

فهو الأمين... لا يخون، ولا يحرف ولا يبدل

وهو المكين... ذو المكانةِ السّامقة، والمرتبةِ البَاسِقة، ذو المنزلة الرفيعة، والدرجة العالية

ووصفه القرآن الكريم بأنه مطاع، مسموعٌ قوله، مطاعٌ أمره

ووصفه بأنه ذو القوة، عظيمُ الخلقة، شديدُ البطش

جبريل عليه السلام...

خلقه الله تعالىٰ علىٰ هيئةٍ عظيمة، وصفةٍ جليلة

كان جبريلُ عليه السلام...

إذا أراد أن يظهر للنبي ﷺ وأصحابه يأتيه علىٰ غير هيئته، وكان يأتيه أحيانًا علىٰ هيئة الصحابي الجليل دِحْيَةُ الكلبي[1] رضي الله عنه، وطيلةَ الأعوام التي كان فيها جبريلُ عليه السلام مرافقًا للنبي ﷺ لم يره فيها علىٰ هيئته الحقيقية إلا مرتين.

يصف النبي ﷺ المرة الأولىٰ التي رآه فيها علىٰ صورته وقد كانت بمكة المكرمة بعد مرحلةٍ عصيبةٍ مرَّ بها النبيُّ ﷺ حين فَتَرَ الوحي فترة، فبينما كان النبي ﷺ يمشي إذ سمِعَ صوتًا فرفع بصره فإذا جبريل عليه السلام جالسٌ علىٰ كرسي بين السماء والأرض!

إنها عظمة جبريل عليه السلام، وخلقته الشديدة حتىٰ كان سادًّا بعظيم خلقه ما بين السماء والأرض، وقد رآه وله ستمائة جناح، ولشدة عظمته، وجلالة هيبته، ارتعب النبي ﷺ فرجع إلىٰ أهله وهو

(١) من كبار الصحابة شهدا أُحُدًا وما بعدها. الاستيعاب (٢/ ٤٦١).

يقول: دثروني دثروني، وفي هذا يقول الله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]، كانت المرة الثانية التي رآه فيها ﷺ علىٰ صورته حين عُرِجَ به إلىٰ السموات العلا، ورأىٰ هناك من التّهاويل وعجائبِ خلق الله الشيء الكثير، وهناك كان رسول الله ﷺ علىٰ موعدٍ مرة أخرىٰ مع جبريل عليه السلام فقد رآه هناك بخلقٍ عجيبٍ يفيض جلالًا وعظمةً وجمالًا وهيبة، وقد وصفه النبي ﷺ بأنه يُنتثر من ريشه التهاويل: الدرُّ والياقوت، وأنه رآه في حلَّةٍ من رفرف، فتأمل في عظمة هذا الملك وهو بست مائة جناح يستطيع أن يسد أفق السماء وتنهمر من ريشه الدر والياقوت، أي جمال وأي بهاء أعظم من ذلك.

عند قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنا واللهِ أوَّلُ مَن سألَ رسولَ اللهِ ﷺ عَن هذا قالَ: «**إنَّما ذَلكَ جِبريلُ وما رأيتُهُ في الصُّورةِ التي خلق فيها غير هاتين المرَّتينِ رأيتُهُ منهبِطًا منَ السَّماءِ سادًّا عِظَمُ خَلقِهِ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ**» [مسلم - ٢٨٢]

وعند قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٨- ٩] قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ذَاكَ جِبْرِيلُ كَانَ يَأْتِيهِ فِي صُورَةِ الرَّجُلِ، وَإِنَّهُ أَتَاهُ هَذِهِ المَرَّةَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي هِيَ صُورَتُهُ فَسَدَّ الأُفُقَ» [البخاري- ٣٢٣٥]

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨] قال: «رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ» [مسلم- ١٧٤]

وعن ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ، عَلَيْهِ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ، يُنْتَثَرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاوِيلُ: الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ**» [أحمد – ٣٩١٥، وحسن إسناده شعيب الأرناؤوط وآخرون]

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ١١]، قَالَ: «رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي حُلَّةٍ مِنْ رَفْرَفٍ، قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» [صححه الألباني في صحيح الترمذي- ٣٢٨٣]

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨]، قَالَ: «رَأَى رَفْرَفًا أَخْضَرَ سَدَّ أُفُقَ السَّمَاءِ» [البخاري- ٣٢٣٣]

سيد ولد آدم ﷺ يحكي رؤية أكرم الملائكة جبريل عليه السلام،

وقد كانت رؤيتهُ لجبريل عليه السلام تستحق أن تروىٰ للأجيال لعِظم خِلقته، وبهاء طلعته، وجمال شكله

إن هذه الخِلقة العظيمة التي رآه عليه النبي ﷺ لهي جانبٌ من جوانب بيان عظمة المولىٰ القدير سبحانه وبحمده

وكما أن جبريل عليه السلام خلقته كريمة، وصفاته حميدة، فكذلك معشرُ الملائكة الكرام، خلقهم الله من نور، وأوكل إليهم مهاماً عظيمة، وأعمالًا جليلة.

عبادٌ مكرمون، لا يسأمون ولا يفترون، وهم مربوبون مُسخّرُون ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]

أعدادُهم غفيرة

أعمالُهم جليلة

منزلتهم كريمة

أصحابُ تسبيحٍ مستمر، وعبادةٍ دائمة

ولهؤلاء الملائكةِ الكرام البررة علاقةٌ وطيدة بنا نحن المؤمنين

ومن أجملِ ما تقرأ في تلك العلاقة الجميلة بين الملائكة والمؤمنين:

أنَّ هؤلاءِ الكرام يُصلُّونَ علينا ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]

منْ تعرفُه في الأرضِ قد يجلبُ لك خيرًا، أو يدفع عنكَ ضرًّا

يسعىٰ صديقُك لنفعك

ويريد والدك رفْعَ قدرك

ويحاولُ أخوك سدَّ حاجتك

كلُّها تدور في رحىٰ الحياة الدنيا

وتحيطُ بجوانبها، وتتمخض في مادِّيتها

ولكن...

ملائكةُ الرَّحمن في السَّمواتِ العُلىٰ

الذينَ عَرفوا صِدْقَ إيمانك، وحُسْنَ عَمَلك

يسعَونَ لكَ في منافعَ سَامِية الرُّتبة، جليلة المَنزِلة

تمشي علىٰ الغبراء وهم في السماء يصلُّون عليك

تتقلب في فيافي الأرض وهم في المَلكوت الأعلىٰ يدعون لك

بالخروج من الظلمات إلىٰ النور

فهل من نفعٍ أجمل من أن يتعدىٰ حدود الدنيا إلىٰ دعواتٍ باسمكَ تتردَّدُ في ملكوتِ السَّماء؟!

يقول الله تباركَ وتعالىٰ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورىٰ: ٥]

تلك رحمةُ الله بعباده، تلك علاقة الملائكة بالمؤمنين، يهيء الله لهُم من يستغفر لهم، وذلك المستغفر ممن لا يعْصون الله مَا أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون

الملائكَةُ الكِرامُ أيضًا يُؤَمِّنونَ علىٰ دعواتنا، قال ﷺ: «**لا تدعوا علىٰ أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمنون علىٰ ما تقولون**» [مسلم-٩٢٠]

فيا من وَهَنَتْ عظامُه

وضَعُفَ حالُه

ورقَّ جسدُه

يامن غزىٰ الهمُّ قلبه

وركب الغمُّ نفسه

وسكن الوجعُ روحه

يا من يريدُ ولا يستطيع، ويرجو ولا يقدر

ارفع يديك إلىٰ الله فثمَّت ملائكة كرام خَلْفك تُؤَمِّنُ علىٰ دعواتك حتىٰ يُستجاب لها!

ما أكرمها من علاقةٍ شريفة، وما أجملها من آصرةٍ كريمة، وما أجلَّها من رابطةٍ عظيمة

الملائكة الذين يحفظوننا في الدنيا، ويؤيدوننا، ويستغفرون لنا، سيبقونَ معنا حتىٰ يزفونا إلىٰ الجنان وهم يقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]

ولا تنقطع تلك العلاقةُ الكريمة مع الملائكةِ الكرام، بل سيبقون معنا حتىٰ في قصورنا هناك في جنات النعيم يحملون معهم أجمل كلمة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

(٤)

أتحب أن أريك آية

البـــلاء سُنَّة الله الجارية

وإرادةُ اللهِ الماضية

يصيب الله به كلّ إنسان، ويمتحنُ به أهل الإيمان

وقد جعل الله هذه الدّنيا دار ابتلاءٍ لا دار استواء

ومنزل ترحٍ لا منزل فرح

فمنذُ أنْ تولد أيّها الإنسان تُطلقُ صرختك الأولىٰ ثم تمضي في حياتك، وفي خضمّ رحلتك الطويلة في هذه الحياة ربّما يتأخرُ عنك ما يسعدك، ربّما يبتعد عنك ما يفرحك، ربما يتشبّث بك الحزن فلا يتركك

وهكذا الإنسان دائمًا يُبتلىٰ في نفسه أو ماله أو أهله، وبقدر قوّة الدين، يبتُلىٰ الإنسان من ربّ العالمين

والله يبتلي المسلم في حياته ليحطّ عنه السيئات، أو يرفع درجته في الجنّات، أو يبوِّءه منصبًا عاليًا في الدنيا، فلولا البلاء لبقي يوسفُ

عليه السلام منعّمًا في حضنِ والديه؛ ولكن البلاء صيّره من صغيرٍ خامل الذكر إلىٰ وزير الخزائن في مصر

ومهما اشتدّ بك البلاء، وعظم الداء

وتجرّعت غصصُ الآلام، وحاصرتْك الهمومُ والأحزان

تيقن بأن لك... ربًا كريمًا

وأنّ أجر صبرك عظيم، وبقدر صبرك، يكون سرورًا عاقبة أمرك

وإنّك حينَ تتجرّعُ مرارةَ الابتلاءات، تيقّنْ أنَّك لستَ وحْدك، وأنّ ما أصابك لم يكن ليخُطئك، وأّن معك في هذا الطريق الأنبياء والأولياء، فكلُّ الناسِ يُصيبهُ في هذه الدنيا الهمُّ والحزن

حتّىٰ رسولُ الله ﷺ وهو أعظم البشر ما سَلِمَ من البلاء، وهذه القصة الشجيّة، ستجعل القلب يعتصر والدمع ينهمر حين تتعرف علىٰ قدر المعاناة التي عاشها النبي ﷺ

«جاء جبريل عليه السلام ذات يومٍ إلىٰ رسول الله ﷺ وهو جالسٌ حزينٌ قد خُضب بالدماء قد ضربه بعض أهل مكة

فقال: ما لك؟

قال: **فعل بي هؤلاء وفعلوا**، قال أتحبّ أن أريك آية؟

قالَ: **نعم أرني**

فنظر إلىٰ شجرةٍ من وراء الوادي قال: ادع تلك الشجرة

فدعاها فجاءت تمشي حتىٰ قامت بين يديه

قال: قل لها فلترجع

فقال لها فرجعت حتىٰ عادت إلىٰ مكانها

فقال رسول الله ﷺ: **حسبي**». [صححه الألباني، صحيح ابن ماجه- ٣٢٧٠]

يا من ألمتْ بكَ الأحزان، وسكنتْكَ الأشجان، ونزلتْ بقلبِكَ الآلام..

يا من تباعدَ عنه حُلمه، وتناءَت عنه أُمنيته، وحيلَ بينه وبين ما يرجوه..

يا منْ أغْرقتهُ الدّيون، وأخَذَت أولادَه المنون، وتاهَ في فيافي سيئات الظنون..

يا منْ أبحرَ في بحارِ الكآبة، وضاعَ في دياجي ظلمةِ التّعاسة..

أظننتَ... أنَّ الله ينساك؟!

أنسيت... وعده بالثواب الجزيل لأهل الصبر الجميل

ها هو رسول الله ﷺ...

أعظمُ البشر، وأكرمُ الخلق، جلس يومًا حزينًا مهمومًا..

هل تخيّلت كيفَ أنّ أكرمَ الخلق علىٰ ربِّ العالمين، يجلسُ في هذه الدنيا يصيبه الهمّ، ويشجيهِ الغمّ، ويسكنُه الألم..

ينكسرُ خاطرُه، وتتكدّرُ نفسُه، ويغرقُ في الأحزانِ قلبُه، وينالُ من بلاءِ هذه الدنيا

وليتَ عُمري لو جلسَ مهمومًا فقط، بل كان حبيب الله ﷺ مخضوبًا بالدماء!

ضربهُ أهل مكة فأدمَوه، أرادَ بهم خيرًا، وسعىٰ ليلَ نهارٍ لإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، ويضربونه ﷺ

فكلما أصبت ببليةٍ تذكر حبيبكَ ﷺ قد ضربه قومه حتىٰ أدموه فجلس مهمومًا حزينًا

وثقْ أنَّ الدنيا التي لم تصْفُ لرسول الله ﷺ لن تصفوَ لأحدٍ بعده، ولكن!

ثق أيضًا بأن الفرج لن يطول انتظاره، والله لا يخذل عبادَه كما حصل للنبي ﷺ

فبينما هو جالسٌ حزينٌ أرسل الله إليه أكرم الملائكة، أرسل إليه جبريلَ عليه السلام، رفيقه في مواقف كثيرة، ومعلمه في مواضع عديدة، وواسطته مع رب العالمين، فينزل عليه جبريل عليه السلام يضمد جراح نفسه ﷺ

يسكن عَنه حزنه، يخفّفُ عنهُ ألمه

فسأل جبريلُ عليه السلام النبي ﷺ عن حاله، فما كان من الحبيب ﷺ بعد أن وجد الرفيق إلا أن باح بمكنونات قلبه فقال فعل بي هؤلاء وفعلوا، فقال له جبريلُ عليه السلام: أتحب أن أريك آية؟

يسليه جبريل عليه السلام، يؤكد له بأنه رسول الله، ولن يضيعه الله، فيقول ﷺ: نعم أرني

فنظر جبريل عليه السلام إلىٰ شجرةٍ من وراء الوادي فقال: ادع تلكَ الشّجرة

فدعاها ﷺ فجاءت تمشي حتىٰ قامت بين يديه

فلما قامت الشجرة بين يديه قال له جبريل عليه السلام قل لها فلترجع فقال لها، فرجعت حتىٰ عادت إلىٰ مكانها، فسُرّي عن النبي ﷺ

وهكذا المؤمن في حياته كنبيه ﷺ مبتلىٰ

هذه الحياة معدة للبلاء، وهذه الدنيا دار ابتلاء

والصبر واليقين...

سبيل نيل أعلىٰ الدرجات وكشف غمة الكربات

بالصبر يكون الله معك، يخففُ عنك، يبدِّل حزنك فرحًا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]

بالصبر تدرك المنىٰ، فلا تجزع، ولا تضجر، فلا يليق بالمؤمن الحزن والنبي ﷺ يقول: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» [مسلم - ٢٩٩٩]

فالمؤمن يؤجر علىٰ وخز الشوك، ويعطىٰ علىٰ حرارة الدمع، ويمنح علىٰ وجع القلب، وكيف يحزن المسلم وهو يعلم أنه «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ(١) وَلاَ وَصَبٍ(٢)، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ

(١) تعب.
(٢) مرض.

أَذًىٰ وَلاَ غَمٍّ، حَتَّىٰ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»
[البخاري- ٥٦٤١]

أخيرًا

هذه قصة نبيك محمد ﷺ، تذكرها كلما ألمَّ بك حزن، تذكرها كلما ادلهمت بك مصيبة، واعلم أنّ مصيبة نبيك ﷺ كانت أعظم فصبر

ثق تمامًا أن الألمَ ليله قصير، والأملَ فجره قريب، وأن ظلماتِ الغمّة سيبددها فجرُ الرحمة

فاسقِ قلبك بمزيد من الرجاء، وتأكد أن هذه الحياة فانية فاسع فيها إلىٰ الله بكل قوة، فهنا نفسك بالآلام تتوجّع، وبالصبر هناك في الآخرة تبتهج.

أمنياتنا التي انتظرناها علىٰ شباك الآمال... ستأتي

أوجاعنا التي غرست في قلوبنا مخالبها... ستمضي

ولنتيقن بأن مع العسر يسرًا، ومع شدة الكرب نصرًا، وأن بعد جفاف تلك الابتلاءات ربيع باسم، وبين فيافي تلك الآلام روضة

غنّاء، لنؤمن بأن الله سيعطينا، وسيجزي صبرنا فرحًا وسرورًا وعاقبة حسنة ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

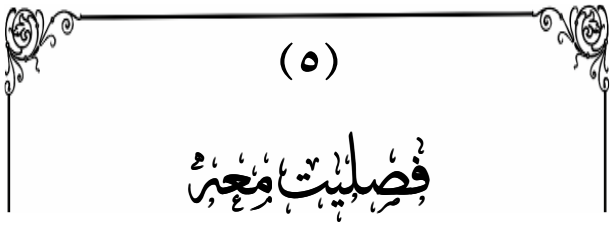

(٥)

فصليت ركعة

في غمرةِ رحلة الحياة الطويلة...

تتعبُ أرواحنا، وتظمأ قلوبنا، وتنهك نفوسنا

تتهاوىٰ علىٰ قلوبنا أثقالُ الهموم، وتعتلج في النفس أنواع الغموم

وفي خضمِّ كلِّ هذا الصخب ومع تسارع الحياة اليومية تصرخ الروح وتتلمس في جنبات الحياة الصاخبة لعلها تجد الراحة والسكون

من أجل هذا شرعَ الله الصلاة

هناك في بيت الله وبين يدي الرب تُحطّ كل هذه الأثقال

تلقي الهموم عن الخاطر، ترمي الغموم عن الكاهل

هناك تهوي إلىٰ الأرض بجبهتك ساجدًا لترتفع عاليًا نحو السماء

هنا في الصلاة تجد الروح الأمان، ويجد القلب السكينة والطمأنينة

راحةُ المتقين، وجنّة المؤمنين، يؤوون إليها كل يومٍ خمس مرات ليَرْوُوا أرواحهم من برد اليقين، وليذيقوا قلوبهم من حلاوة الإيمان... إنها الصلاة

صلةٌ بين العظيم الكريم الجليل، والعبد الخاضع الذليل

هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي عمود الدين، ولأجل عظمتها وأهميتها لم يفرضها الله كسائر الفروض بإنزال القرآن!

بل صاحبَ فرضية هذه الصلوات الكريمات عددًا من المعجزات العظام والحادثات الجسام...

فها هي معجزة الإسراء والمعراج بالنبي ﷺ

حيث أوجب الله فيها، عليه وعلىٰ أمته الصلاة بتكليمه دون واسطة

وأرسل جبريل عليه السلام يعلم النبي ﷺ هيئاتها وأوقاتها

وهي قصةٌ شيّقة لمن تدبرها، وحادثةٌ عظيمةٌ لمن تأملها، فهلم إليها بقلوب حاضرة وأفئدة متشوقة

عن أبي مسعود رضي الله عنه قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«نزل جبريل فأمّني فصلّيتُ معه ثم صلّيتُ معه ثم صلّيتُ معه ثم صليت معه ثم صليت معه يحسب بأصابعه خمس صلوات»**

[البخاري- ٣٢٢١، مسلم - ٦١٠]

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**هذا جبريلُ عليه السلام جاءكم يعلمكم دينكم، فصلّىٰ الصبح حين طلع الفجر، وصلّىٰ الظهر حين زاغت الشمس، ثم صلّىٰ العصر حين رأىٰ الظل مثله، ثم صلىٰ المغرب حين غربت الشمس وحل فطر الصائم، ثم صلىٰ العشاء حين ذهب شفق الليل، ثم جاءه الغد فصلىٰ به الصبح حين أسفر قليلًا، ثم صلىٰ به الظهر حين كان الظل مثله، ثم صلىٰ العصر حين كان الظل مثليه، ثم صلىٰ المغرب بوقت واحد حين غربت الشمس وحل فطر الصائم، ثم صلىٰ العشاء حين ذهب ساعة من الليل، ثم قال الصلاة ما بين صلاتك أمس وصلاتك اليوم**»

[حسنه الألباني في صحيح الجامع – ٢/ ١٤٦]

ما أعظمه من أمرٍ يوجبهُ الله فوق سمواته، وما أجلّه من فرضٍ يعلّمه إيانا جبريل عليه السلام

ها هو جبريل عليه السلام ينزل علىٰ الرسول الكريم محمّدٍ ﷺ ليعلمه أوقات الصلوات، فيبدأ بصلاة الصبح لنحطّ رحالنا بين يدي الله عند طلوع الفجر، حين تستروح الأنفس بعد السحر، وحين تطمئن كل الأنفس بعد هدأة آخر الليل، يقوم الإنسان يلبّي دعوة الله

لصلاةِ الفجر، ليبدأ منها وبها يومه كلّه

ثم نقوم إلىٰ شؤوننا حتىٰ تصل الشمسُ إلىٰ قبّة السماء، وتزيغُ قليلًا عن وسطه فنصلي لله صلاة الظهر

ثم تجري الشمس وتدلك دلوكًا ويصير ظل كل شيء مثله فنصلي صلاة العصر، نتفيأ في هذه الظلال رحمة الله

ثم تبدأ الشمس نهاية رحلتها فتغرب تاركةً خلفها خيوطها الذهبية علىٰ رؤوس الجبال، وأسقف المنازل، وحينها نصفّ أرجلنا لله نقف بين يديه نصلي صلاة المغرب

وحتىٰ بعد رحيل الشمس تترك لنا شيئًا من ذكرياتها تراها الأعين حيث الشفق الأحمر في المغيب يصبغ الدنيا بلونه الهادئ الأنيق، وهو أيضًا يرحل رويدًا رويدًا مؤذنًا برحيل آخر خط منه دخول وقت صلاة العشاء

ثم جاء جبريل عليه السلام في اليوم التالي فصلىٰ الصلوات الخمس بآخر أوقاتها ليبين لنا أول الوقت وآخره

إنها الصلاة معلِّمها جبريل عليه السلام ومُعلَّمها محمد ﷺ، فتأمل عظمة الفرض حين تحفه كل هذه العظائم

هي الصلاة تغدو بها الحياة أجمل

تخوض معتركَ الحياة ثم تأتي خمس مراتٍ في اليوم ترتفع عن دنَسِ الدنيا إلىٰ طهر السماء، تأتي خمس مرات للصلاة لتحيي شعورك الضّامر

لتردّ نفسكَ إلىٰ الله كلما حاول الشيطان أن ينتشلك

إنها الصلاة بسنائها وسناها تكون الصلة دائمة برب العالمين

إنها الصلاة بجلالها وبهائها، مثّلها النبي ﷺ بالنهر الجاري فقال: «**أرأيتم لو أن نهرًا باب أحدكم يغتسل منه كل يومٍ خمس مرات هل يبقىٰ من درنه شيء؟**»

قالوا: لا يبقىٰ من درنه، قال: «**فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا**» [مسلم- ٦٦٧]

فكما أن الأنهار تسر الناظرين، فإن هذه الصلوات... هي بهجة المتقين، وراحة المؤمنين

وكما أن الاغتسال يزيل الأدران، فإن هذه الصلوات... تمحو الخطايا وتزيل الآثام

إنها الصلاة نتقوىٰ بها علىٰ المصاعب، ونتغلب بها علىٰ المتاعب ونفزع إليها عند الملمات، ونتشبث بها عند المفزعات

﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥]

وهي آخر وصايا رسول الله ﷺ حين حضرته الوفاة فقال: «الصلاة، الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم فما زال رسول الله ﷺ يقولها حتىٰ جعل يغرغر بها في صدره، وما يفيض بها لسانه» [السلسلة الصحيحة- ٨٦٨]

إنها الصلاة ملاذنا حين يشتدّ الوجع، ومسكننا حين يتعاظمُ الألم، إنها متنفسنا حين تتهاوىٰ كل بناءات الدنيا ويبقىٰ حبل الله ممدودًا بقلوبنا.

(٦)

تواضع لربك

التواضع...

صفة الأنبياء، وشيمة العظماء، وحلّة النبلاء

تتحلّىٰ به النفوسُ العظيمة، وتتزيّنُ به الأمَمُ الراقية، وتبتهِجُ به القلوبُ الرضية

التواضعُ...

ما اتصف به ضعيفٌ إلا رَفعه، ولا تحلّىٰ به وجيهٌ إلا أجَلَّه، ولا تلبّس به عالمٌ إلا كتب الله له القبول

التواضع...

لباس المتقين، وزينة المؤمنين، وأكثرُ الناس تواضعًا هم الأنبياء، وأعظَمهم تواضعًا هو إمام المرسلين ﷺ

فقد كان ﷺ أكثر الناس تواضعًا، وأحسنُهم خلقًا

جَلَسَ جِبْرِيلُ عليه السلام إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَإِذَا

مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا نَزَلَ مُنْذُ يَوْمِ خُلِقَ قَبْلَ السَّاعَةِ

فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ

أَفَمَلِكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ، أَوْ عَبْدًا رَسُولًا؟

قَالَ جِبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ

قَالَ: «**بَلْ عَبْدًا رَسُولًا**» [صححه الألباني، صحيح الترغيب- ٣٢٨٠]

انتقل بفؤادك إلىٰ ذلك المجلسِ المبارك

حيثُ يجلسُ أكرم الملائكة جبريلَ عليه السلام، عند أعظم البشر ﷺ، فإذا بملكٍ ينزل من السماء، وليس أي ملك هذا الذي ينزل!

بل هو ملك لم ينزل إلىٰ الدنيا منذ خُلق

لقد جاء بأمرٍ عظيم، وخطبٍ جسيم

يرسل الله ملكًا لم ينزل قط إلىٰ الدنيا، ولم يرسل جبريل عليه السلام كما هي العادة، وقد كان هذا الملك الكريمُ يحمل تخييرًا من الله لنبيه ﷺ فقال له الملك:

أرسلني ربك أَفَمَلِكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ، أَوْ عَبْدًا رَسُولًا؟

أمُلكٌ وسلطان وجاه أم عبوديةٌ وتواضع؟

أَمُلكٌ يرفع مقامك في الدنيا، أم عبوديةٌ ترفع ذكرك في الآخرة؟!

أَمَلِكٌ تذلُّ له الرقاب، أم عبدٌ تحبه قلوب العباد؟

فالتفت رسولُ الله ﷺ إلىٰ رفيقه جبريل عليه السلام كالمستشيرِ له، فإنّه ما عهده إلا ناصحًا، ولا عرفه إلا محبًّا

فقال له جبريلُ عليه السلام: تواضع لربّك يا محمد

فحزمَ رسولُ الله ﷺ أمره، واختار قراره، وقدم العبودية علىٰ المُلك فقال ﷺ: بل عبدًا رسولًا

عبدًا رسولًا...

يمشي، ينام، يأكل، ويعيش كأي فرد من الناس، ويكونُ بينهم بلا تمييز حتىٰ أن الأعرابي الذي يأتي إلىٰ المدينة يسأل أيكم محمد؟! ﷺ

هذا رسول الله ﷺ...

يخَيَّرُ بين المُلكِ والعبودية، بين الترفّع والتواضع، في هذا الموقف ينصحه جبريلُ عليه السلام بأن يتواضع

فيختار العبودية لله، فشرفه الله ورفعه، وأعلىٰ منزلته، وأبقىٰ ذكره، وذَكَرهُ بالعبودية في أشرف مقاماته

هكذا التواضع...

منهج إمام الأنبياء والمرسلين

التواضع يكتنف حياته

التواضع يصبغ هديه وسمته

التواضع يلازمه حتىٰ في أسمىٰ درجات العزة والتمكين، فدخل ﷺ مكة المكرمة حين فتحها محنيًا رأسه حتىٰ إن لحيته الشريفة تمس رحل ناقته تواضعًا لله عز وجل

هكذا رسول الله ﷺ...

عاش طيلة حياته المباركة الكريمة الشريفة

مطبقًا للاختيار الذي اختاره... التواضع

فقد كان ﷺ متواضعًا في كل شؤونِ حياته، يقوم بأمرهِ بنفسه،

ويخدمُ أهله، ويشاركُ أصحابه، يبني معهم المسجد، ويحفرُ معهمُ الخندق، ويشاركهم الأكلةَ والشربة في تواضعٍ عظيم، ولين جانبٍ عميم

التواضع الذي منشأه قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]

التواضع الذي ينمو ويترعرع في كنف لين الجانب وحُسن المعشر، وطيب الكلام

التواضع الذي يمنع صاحبه من الكبر والعجب والتكلف

تواضع تكن كالبدر لاح لناظر علىٰ صفحات الماء وهو رفيع

وختامًا

التواضعُ اختيار أكرمِ الملائكة، وصفةُ سيّدِ المرسلين

فيا نفسُ تواضعي لربك، وتذللي لخالقك، وتوددي للناس، وتذكري دائمًا...

قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى

﴿ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]

وقوله ﷺ: «**وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**» [صحيح الجامع- ٥٨٠٩].

(٧)

أبشر بنور ين

تتوالىٰ لقاءاتُ حبريل عليه السلام بالنبي ﷺ

ينزلُ بالوحي

يأتي بالبشارات

يُرسل بالمكرمات

يكون رفيقًا وصديقًا وملهمًا للنبي ﷺ

يجلس معه

يحدثه

يعلمه

يلهمه

وفي إحدىٰ تلك اللقاءات الكريمة كان جبريلُ عليه السلام جالسًا عند النبي ﷺ، فيسمعُ النبي ﷺ صوتًا من فوقه، فيرفع عليه الصلاة والسلام رأسه مستغربا متعجبًا من هذا الصوت غير المعهود!

فيتحدث جبريل عليه السلام كعادته حين يكون النبي ﷺ في حيرة من أمره، فيزيل تعجبه، ويبدد استغرابه

فما هذا الصوت الغريب؟

وماذا قال له جبريل عليه السلام؟

إليك الجواب في هذه القصة التي تضمنت خصائص وبشارات، وفضائل ومسرّات

بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ» [مسلم- ٨٠٦]

تتوالى نعمُ الله على هذه الأمة

ويتعاظمُ إكرامه

ويزدادُ إحسانه

فيخصهم الله بفضائلَ عظيمة، ومزايا كريمة، وخصائص جليلة

إنه كرم الله حين ينزل، ووابل جوده حين يهطل

إنه الله حينَ يُلبس هذه الأمة لبوسًا فاضلة، وحين يزينها بحللٍ باهرة، وحين يختصها من بين سائر الأمم ليعطيها روضات من منحِ الله

وإنها البشارات الكثيرة التي ترافق وجود جبريل عليه السلام، فهو رفيق البشارات لهذه الأمة، آتٍ بالرحمة لها بأمر ربها

كان جبريلُ عليه السلام جالسا عند النبي ﷺ كعادته إذ يسمع النبي ﷺ صوت بابٍ يُفتح من فوقه(١)!

عجبًا! أي بابٍ هذا الذي فوقهم حتىٰ يُفتح؟!

بادر جبريل عليه السلام بإخبار النبي عليه الصلاة والسلام بأن هذا بابٌ في السماء لم يفتح إلا اليوم

نزلَ منه ملكٌ لم ينزل إلىٰ الأرض إلا اليوم

إنها البشارات مجددًا تنزل علىٰ رسول الله ﷺ لأمته

بابٌ لم يفتح قط يُفتح لهذه الأمة

ملكٌ لم ينزل إلىٰ الأرض قط ينزل من أجل هذه الأمة

إنها خصائص فريدة يختص الله بها هذه الحادثة لأن ما ينزل به هذا الملك هي بشارات فريدة تُنحَلُها هذه الأمة

بابٌ جديد

ملكٌ جديد

بشاراتٌ جديدة

---

(١) في الحديث «سمع نقيضا»، والنقيض هو صوت فتح الباب.

نزلَ الملك الكريم حتىٰ جاء إلىٰ النبي ﷺ فسلم عليه ثم قال له: «أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبيٌّ قبلك»

نورٌ من عند الله بهيّ، وكرم من المولىٰ سَنيّ

هما فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة

وليست هي البشارة الوحيدة، بل تبعتها بشارة أعظم، وخبر أكرم، وجودٌ أعم

«لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ»

تقرأ الفاتحة توحِّدُ ربك فيرضىٰ عنك

تطلبُ الاستقامة لتستقيم حياتك

تطلبُ العون فيعينُك

تطلب الهداية فيمتن بها عليك

تقرأ خواتيمَ سور البقرة فتعرف أن الله لن يحملك فوق طاقتك

تطلبُ منه عدم المؤاخذة بنسيانك، وتجاوز أخطائك وزلاتك

تطلب منه المغفرة والرحمة، والعفو والنصرة

ويقول الله في كل ذلك: «قد فعلت» [مسلم- ١٢٧]

أيُّ كرمٍ أعظم من هذا؟

وأي جودٍ أعمّ من ذلك؟

هذا، وإن لهاتين السورتين ـ الفاتحة والبقرة ـ فضائل شتىٰ

منهـا أن سـورة الفاتحـة هـي الـسبع المثـاني التـي ذكرهـا الله في كتابه، ولم تنزل هذه السورة في أي كتاب سابق كما يقول النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أُنْزِلَ فِي التَّوْرَاةِ، وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا، إِنَّهَا سبْعٌ من الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُه» [صححه الألباني، صحيح الترغيب - ١٤٥٣]

وسورة الفاتحة رقيةٌ لا تخطئ إن صدقت النية، فقد روي أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ نزلوا بأرض قوم فلدغ سيدهم فرقاه أحد الصحابة بسورة الفاتحة فبرئ حتَّىٰ لَكأَنَّما نُشِطَ مِن عِقالٍ [البخاري- ٥٧٤٩، مسلم - ٢٢٠١]

فيا أيها المحزون، يا من مسّك الضر، يامن أوجعك الألم

هاهي الفاتحة في كتاب ربك فقم بها إلىٰ مرضك، وثق بالله الكريم فإنه لن يخيبك

وأما سورةُ البقرة فإنها حرز من الشيطان، وحفظ من السحرة، وحماية من المردة والخبائث، ومنفرةٌ للشياطين كما قال ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنْ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ» [مسلم- ٧٨٠]

وإن كنت تروم الشفاعة يوم القيامة فعليك بسورة البقرة فإنها لا

تترك صاحبها، ولا تدع قارئها، ولا تخذل حاملها، يقول النبي ﷺ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أو كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ» [مسلم - ٨٠٤]

إنه عطاء الله الكريم، وفضله العميم، وخيره العظيم

إنها خصائص هذه الأمة المرحومة المباركة

يفتح الله بابًا لم يفتح قط

ويرسل ملكًا لم يرسله قط

ويُنزل معه سورتين لم يؤتهما أحدٌ من قبل

فأي عطاء أعظم من عطاء الرحمن، وأي كرم أكبر من كرم الحليم المنان؟

ما من دعاءٍ في الفاتحة وفي خواتيم سور البقرة إلا ويستجيبه الله

فهنيئًا لمن حفظهما

ووعاهما

وقرأهما

وعمل بهما

(٨)

يا محمد اشتكيت

نعيشُ بينَ مرافئِ الحياة، ودهاليزِ[١] العمر
نُبحِرُ في بحارِ الحياة فتَموجُ بنَا المصاعب حينًا
وتتَلَّقفُنا المَتاعب حينًا آخر
تتعلَّقُ بقلوبنا الشدائد، وتهوي بنا الهمومُ نحوَ الهاوية
ولكن...
تتبَقَّىٰ سُبُلُ نجاةٍ يجعلُها اللهُ
سندًا في لُجَّة الحياة
وحبلًا يشدُّ الأزر
ومن تلكَ الحبال
الصَّديقُ الصَّدوق...
نعمةٌ من الله، وهِبَةٌ من الرحمن، إنهُ الملاذُ من النَّوائبِ والخيباتِ بعدَ الله

---

(١) الدهليز هو السرداب والقبو.

الصَّديقُ الصَّدوق...

هوَ الذي يَرويك حين تُظْمِئكَ الحياة

يسألُ عنكَ حينَ تغيب، يتَفَقَّدُكَ حينَ تمرض، يبحثُ عنك حينَ يَسْكُنُكَ الوجَع، يَنْتَشِلُك حينَ يَغرسُ فيك التَّعبُ مخالبَه بلا هوادة

الصَّديقُ الصَّدوق...

هوَ رفيقُ الدَّرب، ومنارُ الطريق، وشعلةُ الحَياة، ولذلِكَ رفَعَ اللهُ شَأْنَ الأُخُوَّةِ في الإسلام، فالرفيقُ ليسَ معينًا فقط في الدنيا، بل حتىٰ في السَّيرِ إلىٰ الله والدَّارِ الآخرة

الصَّديقُ الصَّدوق...

هو منْ يشعُرُ بِك، هُو منْ يكونُ جِوارِكَ في السّير إلىٰ الجنَّة، هو من يُقوِّي عزِيمتَك حين تَفتر، من يراك تتفلَّتُ من الطاعة فيعيدُك إليها، من يراك تقترفُ معصيةً فيُبعدك عنها، إنه النَّسمةُ العليلة، والماءُ الزُّلال

الصَّديقُ الصَّدوق...

تميلُ إليهِ بكتفكَ حين تنهارُ من تعبِ الحَياة فتجدُهُ سندًا لك،

حُزنُك الممتدُّ يسقطُ نحوَ الغروب ببزوغِ فجرِ محيَّاهُ المشرق، هدْهَدتُه[١] تُلطِّفُ عالَمَك الضَيِّق

بمثلِ هذا الرَّفيق كانَ جبريلُ عليه السلام للنبيِّ ﷺ!

إنها علاقةٌ عظيمةٌ بين أكرَمِ الملائكة عليه السلام وأعظمِ البشر ﷺ

لم يكن جبريلُ عليه السلام فقط رسولًا من عند الله يتَنَزَّلُ بالوحي

بل كان رفيقًا للنّبي ﷺ طيلة حياته المباركة

كانَ يتفقَّدُ أحواله، يزورُه عندَ حُزنه، يخَفِّفُ عنهُ حين يغتم، يعينُه حينَ يهتم

يواسيهِ حين يستاءُ، وَيسلِّيهِ حينَ تثقُلُ به الهموم

وتلكَ العلاقةُ الكريمةُ التي استمرت أمدًا طويلًا كان فيها جبريلُ عليه السلام معلم النبي ﷺ ومرشده ورفيقه والمخفف عنه

وهكذا جبريلُ عليه السلام في قصة من القصص الشيِّقة يأتي إلىٰ

(١) الهدهدة في الأصل صوت هدير الحمام، ويستخدم في معنىٰ التهدئة

النبي ﷺ

يتفقَّد حاله، ويسألُه عن مصابه، ولمْ يكتف بسماع توَجُّع النبي ﷺ بل بادر إلىٰ العلاج، وسارعَ إلىٰ الدواء، فكانَ ذلك العلاجُ خيرًا للأمة كلها!

وهكذا يجعلُ اللهُ جبريلَ عليه السلام سببًا لإنزال الخيرِ لنا، وجلْبِ النفع لنا، صارتْ كلماته مناراتٍ في طريقنا نستخدمها دائما

فممَّ اشتكىٰ النبي ﷺ ؟

وما علاجُ جبريل عليه السلام الذي صار علاجًا للأمة كلها؟

جاءَ جِبْرِيلُ عليه السلام إلىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: **يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟**

فَقَالَ: «**نَعَمْ**»

قَالَ: «**بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ**» [مسلم - ٢١٨٦]

يأتي أكرمُ الملائكة جبريل عليه السلام إلىٰ النبي ﷺ وهو مكتنِفٌ المرض

قد ألَمَّ به الوجع، ومسَّه السوء، وأحاطَ به الوصب، والتفَّ به النَّصب

فجاءهُ جبريلُ عليه السلام رفيقه من السَّماء ف

قال له: يا محمَّد، اشتكيت؟

يا لها من كلمةٍ رحيمة، وعبارةٍ لطيفة، يسأله قائلًا: اشتكيت؟

يا رسول الله أأصابكَ وجع؟ أَأتعبك مرض؟ أنزل بك داء؟

فقال النَّبي ﷺ لرفيقه: نعم

فبدأ جبريلُ عليه السلام يرقيه ليزيل ألمه بإذن الله فقال: «**بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ**»

باسم اللهِ بدأَ علاجه، وبه استعان علىٰ رفعِ بلائِه، فهوَ وحدهُ القادرُ علىٰ دفع الضر، وإزالة الشَّر

جاء هذا الصَّديقُ الصَّدوق يرقي النبي ﷺ باسم الله، فصارتْ كلمَاتُهُ تلك رقيةً لكل الأمة، نرقي بها أَنفُسَنا، ونعالجُ بها مَرضانا، ونُحَصِّنُ بها مُتعبنا، ونسْتشفي بها لأحبابنا

رسول الله ﷺ مريض

جبريلُ عليه السلام ينزلُ من الملكوتِ الأعلىٰ يرقيه ويهتَمُّ به

علاقةٌ كريمةٌ بين أكرم الملائكة وأعظمِ الرُّسل امتدَّ خيرُها إلينا نحن

يعالجُ جبريلُ النبيَّ ﷺ بكلماتٍ من نور، مستعينًا بالله، ومتعلقًا به، ومُعالجًا باسمه

فاللهُ وحده كاشفُ الكُرُبات، ودافعُ السَّيئات، ومُخفف الآلام، ومزيلُ الأسقام

جبريل عليه السلام يُعالجُ بكلمات تُعلّقكَ بالله، فالتَّعلقُ بالله أساسُ العبودية، وروحُ التوحيد، ومنبعُ السعادة

فالله الغنيُّ ...ونحنُ الفقراء

والله القويُّ... ونحنُ الضُّعفاء

تعلَّق بربك، والزم بابَه

أظهرْ لهُ ضَعفَك، واعترفْ لهُ بفقرك، وبيِّن لهُ عَجْزَك، وتقرَّب إليهِ بوهنك، وتقدم إليه ببوؤسك

فهُو وحْدَهُ يقوِّي ضَعفَك، ويُذهبُ ألَمَك، ويعالجُ مُصابك، ويشفي مرَضَك، ويكشف الضُرَّ عنك

ولذلك كانت كلماتُ جبريلَ عليه السلام كلّها متعلقة بالله تعالىٰ

فالمتعلق به لا يُخذلُ في أشدِّ الكربات، ولا يُترك في المصايب الحَالكات، ولا يتخلَّىٰ عنك عندَ تتابعِ الأزمات

بل تتَوالىٰ عليكَ ألطافُ الرحيم، وتحيطُ بكَ نِعَمُ الكريم، وتُخلِّصكَ رحمةُ ربِّ العالمين

التَّعلُّقُ بالله هو بلسمُ القلوب المُتعَبَة، وتِرْياقُ[1] النفوسِ الوَاهِنة، وعلاجُ الأرواح المنهكة، فمن التجأ إلىٰ الله إلتجَأَ بعظيم، ومَن احتمىٰ بهِ احتمىٰ بقدير، ومنْ تمَسَّكَ به آوىٰ إلىٰ ركنٍ شديد

فيَا من هدَّ المرضُ جسدَه، وأتعبَ الوَهَنُ جسمه

ابذُلِ الأسباب ولكن...

تعلق بمُسبِّبها

وابحث العلاجَ ولكنِ...

لا تنسَ مُوجدها

(١) الدواء عمومًا، ويطلق علىٰ وجه الخصوص علىٰ ما يضاد السموم

وتداوىٰ بالأدوية ولكن...

تعلق بجاعل الشِّفاء فيها

ومعَ الأخذِ بالأسباب المادِّيَّة عالج نفسك بالأنوارِ القرآنية، والأدعيةِ النبوية، والرقية الشَّرعية!

عالجْ نفسَكَ بالرُّقىٰ، وتعلق بالله حينَ تقرؤها ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]

عالجَ جبريلُ عليه السلام النبي ﷺ، فكانت خيرًا للأمة ونورًا لنا أجمعين، فاستخدمها لمداواةِ نفسِك، ومعالجةِ أحبابك

واستخدم أيضًا رقية رسول الله ﷺ «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، مُذْهِبَ البَاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لاَ شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا» [البخاري - ٥٧٤٢]

عالجَ جبريلُ عليه السلام النبي ﷺ بالرُّقية، فارقِ بها نفسك معلِّقًا قلبك بربك، واعلم أن من كشفَ الضرَّ عن أيوبَ عليه السلام، ورزَق الولد زكريا عليه السلام، ونجَّىٰ من الحوت يونس عليه السلام، وجعل النار بردًا وسلامًا علىٰ إبراهيم عليه السلام قادرٌ علىٰ أن يزيلَ مرضك، ويكشفَ همك، ويفرِّج كُربتَك، ويُنحِّي وَجَعَك، ويُنهي ألمَك،

ويبدِّد ظلمتك

فإن كنتَ في مرضٍ فالجأ إلىٰ الله

وإن كنتَ في ضيقٍ فتمسَّك بحبلِ الله

وإن كنتَ في كربٍ فأوِ إلىٰ الله

وإن كنت في غمٍّ فاعتصِم بالله

وإن كنت في خوفٍ فاحتم بجنبِ الله

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]

إن التعلُّق بالله هو أملُ البائسين، ورجاءُ الطَّامحين

هو ديدنُ المتقين، ودِثارُ المؤمنين

فعالج مرضَ جسدك بالتَّعلق بالله، وعالج أهواء قلبكَ بالفرارِ إلىٰ الله

واعلم أن منْ آوىٰ إلىٰ الله قربه...

فأوِ إليه بإخلاصِ قلبٍ وصدقِ نيةٍ في جميعِ الأعمال

وأوِ إليهِ بحُسنِ تأسٍّ ومُتابعةٍ للنبي ﷺ في كلِّ الأحوال

ومن تعلَّق به نصره...

فتعلَّق بسُبل النَّصرِ والتمكين، وتسلَّح بالصَّبر واليقين

ومن دعاهُ أجابَه...

فادعُه حالَ السجود وعندَ السفرِ، ونزولِ المطر ووقت السَّحر

وتحين الأوقات بينَ الأذان والإقامة

ادعه وأنت محسنٌ الظنَّ بالله... سيُذهلُك بعطاياه

ومن رفع إليه يديه استحىٰ أن يردَّهما صفرًا

(٩)

مَا يُبْكِيكَ

رسولُ اللهِ ﷺ...

خاتمُ النَّبيين، وأفضلُ المرسلين

وسيِّدُ ولدِ آدمَ أجمعين

ختم اللهُ به الرِّسالة، وأغلقَ به بابَ النبوات وتنزل الوحي، وجعلهُ اللبِنَةَ الأخيرةَ التي تُكملُ بنيانَ الأديان

اصطفاهُ من خَلْقِه، وأيَّدهُ بنصره

وأنزلَ عليه خيرَ كُتبِه

هوَ رسولُ الله ﷺ، صاحبُ الأخلاقِ المحمودة، والخصالِ الممدوحة، والصفاتِ الكريمة

هو الصَّادقُ الأمين، أرسلَهُ الله رحمةً للعالمين، أنارَ به أعيُنًا عُميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غلفًا

أحبَّتهُ القلوب، وألِفَتهُ النُّفوس، وتعلقت به الأفئدة

كانَ ﷺ حسن الخلق مع صحابته الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

كانَ يُلاطِفُهُم، ويُمزاحهم، ويُدافعُ عنهم، ويحْملُ ضعيفهم،

ويُعينُ مُحْتاجَهم، ويُساعدُ مسكينهم، ويصفحُ عن مخطئهم، ويغفرُ لغليظهم

كان ﷺ كَمَا وصَفَهُ الله في كتابه ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]

أنارَ الله به لنا دياجيرَ(١) الشرك، وبصَّرنا طُرُقَ الحق، وخَلَّصَنا منْ أمواجِ الشَّكِّ والرَّيب إلىٰ مرافئِ(٢) الطُّهر واليقين والإيمان

كانت علاقتهُ بالمؤمنينَ علاقة لا مثيلَ لها في التاريخ!

يدعُو لهُم، ويشتاقُ إليهِم، ويدافعُ عنهُم، بلْ ويبْكي مِن أجلهم!

نعم إنَّه ﷺ بكىٰ من أجْلي وَأَجْلِك

بكىٰ لي وَلَك

بكىٰ لَنَا نحنُ الذين نَأتي بعد قرونٍ من مبعثه ﷺ

اهتم لأمر أمته ﷺ حتىٰ... بكىٰ

---

(١) ظلمات

(٢) المرفأ هو مرسىٰ السفن

فما الذي أبْكاه؟

وما الذي أشْجاه؟

وما الذي جَعَلهُ يذرفُ دموعه الغالية؟

اسمع الإجابة...

تَلَا رسول الله ﷺ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ﴾ الآية [إبراهيم: ٣٦]

وقولَ عِيسَىٰ عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]

فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «**اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**» وَبَكَىٰ

فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟»

فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ

فَقَالَ اللهُ: «**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ**» [مسلم - ٢٠٢]

يبْكي النبيُّ ﷺ

يذرفُ دموعَه الشريفة

سحَّت دموعه ﷺ حينَ تلا القرآن الكريم، فيتذكر ﷺ أمَّتهُ فيُشفِقُ عليهم، ويرحَمُ حالَهم، ويهتم لأمر نجاتهم

فيبكي صلوات الله وسلامه عليه خَشيَةَ أنْ يُصيبنا من عذابِ الله شيء

يُرسلُ الله جبريلَ عليه السلام منْ فوقِ سبعِ سموات يَسْألُ النبي ﷺ عمَّا يُبْكيه ويُشْجيه، وما ذاكَ إلَّا تخفيفًا علىٰ الحبيب ﷺ، فإنَّ الله أعلم بسبب بكائه، ولكن يرسل إليهِ أكرم الملائكة مواسيًا له، فإنَّ الرفيقَ يواسي رفيقه، والصديقُ يخفِّفُ عن صديقه، وجبريلُ عليه السلام رفيقُ النبي ﷺ، يخفِّف شَجَنَه، ويُسْكِنُ لوعته، ويكفكفُ دموعه

يأتي جبريل عليه السلام إلىٰ النبي ﷺ يسألُه عن بُكائه، فيُجيبهُ النبي ﷺ بما أشجاه فأبكاه

يصعَدُ جبريلُ عليه السلام إلىٰ ربِّ العالمين يخبرهُ والله أعلم بما جرىٰ ويجري، فيقول له الله: «**اذْهَبْ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ**»

يا الله...

تأتي البِشَارات

وتنزِلُ الرَّحمات

وتتوالىٰ المَكرُمات

تتَابعُ النِّعمُ الكثيرة، والآلاءُ العظيمة

بكىٰ ﷺ مـنْ أجْلِنَـا فـأنزلَ اللهُ مـن فـوقَ سـبعِ سـموات: إنَّـا سَنُرضيك في أمَّتك

يُرضي فينا حبيبَه ونبيَّه ﷺ

ورضاهُ ﷺ في فَرَحِنا لا حُزننا، في نجاتِنا لا هلاكنا

أيُّ حبٍّ ذاكَ الـذي يحْمِلـهُ قلـبُ النبيِّ ﷺ لنـا حتَّىٰ يَبْكـي مـنْ أجْلِنا

أيُّ حبٍّ يَسكنُ فؤادَه حتىٰ أنه ليدعو لنا في كل صلاته؟!

أجل يدعو ﷺ لأمته في كل صلاته

تقول عائشة رضي الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: لَمَّـا رَأَيْـتُ مِـنَ النَّبِـيِّ ﷺ طِيـبَ نَفْسٍ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ لِي، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَائِشَةَ مَـا تَقَـدَّمَ مِنْ ذَنَبِهَـا وَمَـا تَـأَخَّرَ، مَـا أَسَـرَّتْ وَمَـا أَعْلَنَـتْ**»، فَضَحِكَتْ عَائِشَةُ حتَّىٰ

سقَط رأسُها في حِجْرِها مِن الضَّحِكِ قال لها رسولُ اللهِ ﷺ: «أيسُرُّكِ دعائي؟» فقالت: وما لي لا يسُرُّني دعاؤُكَ ؟ فقال ﷺ: «واللهِ إنَّها لَدعائي لِأُمَّتي في كلِّ صلاةٍ» [صحيح ابن حبان- ٧١١١ وإسناده حسن]

رسولُ الله ﷺ وخليلُه وسيِّدُ ولدِ آدم يدعو لي وَلَك!

فأيُّ رُقَّةٍ تلك التي يحملُها رسول الله ﷺ؟!

بل كان ﷺ يُشْفقُ علىٰ أمَّتِه من الهلاك، ويخافُ عليهَا العِقاب، ويخشَىٰ عليها العذاب، فإِذَا كَانَ يَوْمُ الرِّيحِ وَالْغَيْمِ، عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا رأىٰ المطر سُرَّ بِهِ، وَذَهَبَ عَنْهُ ذَلِكَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: «إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَذَابًا سُلِّطَ عَلَىٰ أُمَّتِي»، وَيَقُولُ إِذَا رَأَىٰ الْمَطَرَ: «رَحْمَةٌ» [مسلم- ٨٩٩]

بل يبادرُ بالسُّؤال، ويسعىٰ لاستمطارِ الرَّحمات، وجلبِ الخيرات، ودفْعِ الموبقات، حبًّا لأمته عليه الصلاة والسلام، وقد أقبل ﷺ ذات يوم من العالية حَتَّىٰ إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَقَالَ ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا» [مسلم- ٢٨٩٠]

يرفعُ يديهِ من أجلِ أمته

يبكي من أجْلِ أمَّته

يصلي فيدْعو لأجلِ أمته

يرىٰ الغيمَ والريح فيتمعَّر(١) من أجل أمته

اهتم النبي ﷺ بأمر أمته ففدانا بنفسِه وروحِه، يهدِّئ منْ رَوعِنا، ويسْبقُنا إلىٰ المخاطر، ويفرحُ بأن نكونَ مطمئنِّين هادئين وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً فَانْطَلَقُوا قِبَلَ الصَّوْتِ، فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَىٰ الصَّوْتِ، وَهُوَ عَلَىٰ فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ، مَا عَلَيْهِ سَرْجٌ، فِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَنْ تُرَاعُوا**» يَرُدُّهُمْ، ثُمَّ قَالَ، لِلْفَرَسِ: «**وَجَدْنَاهُ بَحْرًا**» أَوْ: «**إِنَّهُ لَبَحْرٌ**» [صحيح سنن ابن ماجه- ٦/ ٢٧٢]

تأتي أصواتٌ مخيفةٌ من خارج المدينة

لعلَّه غزوٌ مفاجئ

لعلَّها غارةٌ مباغتة

---

(١) يتغير.

لعلَّه شرٌّ قادم

خرجَ النبي ﷺ المحبُّ الشُّجاع، خرجَ الذي يحرصُ علىٰ أمته فيخاف عليهم من أي غزوٍ من خارج المدينة، فيسبقُهم إلىٰ ذلك الصوت ثم يأتي يُبشِّرهم بوجهه البشوش: لن تراعوا

رسول الله ﷺ يشتاقُ لرؤية المتأخرين من أمته، يتمنىٰ ملءَ قلبه أن لو رآنا صلوات الله وسلامه عليه، يُبشرنا بأنه وإنْ لمْ يَرَنَا في الدُّنيا فإنَّه سينتظرنا في الآخرة!

يخبرنا بقلبٍ رحيم بأنه سيسْبِقُنا إلىٰ الحوض ينتظرنا، فقد أتىٰ النبيُّ ﷺ يومًا المقبرة فَقَالَ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**»

يذكُرُنا النبيُّ ﷺ ونحنُ الذين نأتي بعدَهُ بقرون

يذكرُنا وسط خيرِ هذه الأمة الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

يذكرُنا ويسمينا إخوانُه، يتمنىٰ رؤيَتَنَا، ويودُّ لقاءَنا، ويحبُّ مقابلتنا، ويشتاقُ إلينا

فيقول الصحابة للرسول ﷺ: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**» فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «**أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ**

رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟» قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَىٰ الْحَوْضِ أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا» [مسلم- ٢٤٩]

المحبُّ يحدُوهُ الشَّوقُ لرُؤيةِ من يعرفُه ويحبُّه، المحبُّ يشتاقُ لمن جمعته به الأيَّام ثم فرقت بينه وبينه سُكْنَىٰ المقابر ومُضيّ الأعوام، أمَّا شوقُ النبي ﷺ فإنَّه شوقٌ لمن لمْ يرهم أبدًا!

شوقٌ لمن لم يأت في الدنيا حتىٰ الآن!

شوقٌ لأناسٍ سيأتونَ بعدهُ بقرون!

وشوقُ النبي ﷺ لنا، ورحمته بنا، ليستْ فقطْ للدنيا، بل امتدَّتْ إلىٰ الآخرة، إنّه عليه الصلاة والسلام هناكَ يسبقُنا إلىٰ الحوض

وأنتَ في أرضِ المحشر...

والنَّاسُ كالفراش المبثوث

والجبال كالعِهن المنفوش

الخلق كلهم في أرض المحشر، حيث

نصب الموازين

تناول الصحف إما بالشمال أو باليمين

وفي ذلك اليوم العظيم، والأهوالِ الجسيمة

يكون الورود علىٰ حوضه ﷺ

الحوض الذي...

يصب فيه ميزابان من الجنة

يصفه النبي ﷺ: «**حوضي مسيرةُ شهرٍ، ماؤُه أبيضُ من اللبنِ، وريحُه أطيبُ من المِسكِ، وكيزانُه كنجوم السماءِ، من شرِبَ منه فلا يظمأ أبدًا**» [البخاري- ٦٥٧٩]

إنهُ اهتمام النبي ﷺ بنا، وحرصُه علينا، ورحمتهُ لنا

إنه حبُّه حين يتحوَّلُ إلىٰ عطايا ومِنَح

فحبُّه ﷺ ينقلبُ لنا خيرًا وبركةً وشفاعةً يوم القيامة، فقد أعطيَ النبي ﷺ دعوةً مستجابةً في الدنيا لكنه ادخرها لنا للآخرة، قال ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بِهَا، وَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي فِي الآخِرَةِ**» [البخاري- ٦٣٠٤]

لمْ ينسَنَا النبي ﷺ في الدنيا، ولنْ ينسانا في الآخرة

ففي عَرَصاتِ يوم القيامة

إذْ ينْسىٰ الأخُ أخاه، ويتنكَّر الزوجُ لزوجته، وتتركُ الأم رضيعَها

يوم يرُدُّ الأنبياء العظام عليهم السلام علىٰ الناس فيقول كل واحدٍ منهم: نفسي نفسي

يوم يفرُّ المرء من أخيه وأمه وأبيه

يكون حبيبنا ﷺ قد حمَلَ همَّنا نحن!

يكونُ المصطفىٰ ﷺ وهو وسطَ هذه الأهوال التي تغزو الناس يفكرُ بنا، ويهتَمُّ من أجلنا، ويُشفقُ علينا، فيأتي يسجد عند العرش من أجل الشفاعة فيقال له: «**يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَىٰ ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ**» [البخاري - ٤٧١٢]

يا الله...

الجميعُ يقولُ نفسي نفسي

ورسولنا عليه الصلاة والسلامُ يقولُ: أمَّتي أمَّتي

أيُّ حبٍّ هذا الذي يطغىٰ حتىٰ علىٰ النفس فيكون كل تفكيره فينا؟

أيُّ حبٍّ هذا الذي تجاوز الزَّمان والمكان ليشفع لنا عند الملك العلَّام؟!

إنها شفاعة النبي ﷺ لأمَّته، ينالُها كل مؤمن، ويفرحُ بها كلُّ موحِّد، وينالُها كل متبِّعٍ للنبي ﷺ

بل بلغَ من حبِّ النبي ﷺ لنا مبلغًا عظيمًا حتىٰ يجعله يشفع لأهل الكبائر من أمته!

فشفاعته ليست محصورةً في المؤمنين المخلصين المتقين، بل شفقته وشفاعتهُ تنالُ حتىٰ أهل الكبائر!!

يقول ﷺ: «**شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**» [صححه الألباني، صحيح أبي داود - ٤٧٣٩]

بل يشفع النبي ﷺ لقوم دخلوا النار أن يخرجوا منها

إن المحبَّ المشتاق لحبيبه لا يُخالفه، ولا يُخادعه، بل يكون له سامعًا مطيعًا

إن مَن ملأ الشوقُ قلبَه لرسول الله ﷺ، لن يكتحلَ له جفنٌ،

ولن تهنأ لهُ نفسٌ، ولن يُروىٰ لهُ ظمأ القلب إلا...

باتباع هديه

والأخذ بسنته

وقبول شرعه

والتسليم لخبره ﷺ

وتكمل فرحة القلب وراحة الفؤاد...

برؤيته ﷺ يوم القيامة

والجلوسِ معه

ومصافحتِه

ومرافقته!

وتلك منزلة سامية لن تبلغها بعد رحمةِ اللهِ وفضلهِ إلا باتباع نبيك وحبيبك ﷺ

فيا أيها المحبّ...

اتبع نبيك، وأحبّ رسولك

قدم في سبيل هذا الحبَّ الغاليَ والنَّفيس، وضحِّ من أجله

بأهواءِ النَّفس وشهواتِ القلب

إن المحب لرسول الله ﷺ لن يشعر في هذه الدنيا بالغربة، ولن يحيىٰ حياة الضنك، فقد كان قلبه عامرًا بالحب؟!

فإلىٰ المصطفىٰ تشتاق قلوبُهم، وبحبه تلتاعُ[1] أرواحهم، وبذكرهِ والصلاةِ عليه تلهج ألسنتهم، وبهديه وسمته تتلون حياتهم.

(١) التاع أي احترق من الشوق.

(١٠)

يتباهى بهم الملائكة

تَتنوَّعُ المَجالِس، وَتتباينُ فيها الهِمَم، وتتنوع الأطروحات، وتَخْتَلِفُ الأحاديث

مجلسٌ عن أنواع التجارة والكسب

ومجلسٌ فيه الشد والجذب

مجلسٌ يتلون بالمُحرمات، ومجلسٌ يتزَيَّنُ بالطّاعات

وبينَ كلِّ هذه المجالس بَونٌ شاسعٌ في...

منزلتها عند الله

فهيَ ما بينَ مأجورةٍ ومأزُورَة

بَيْدَ أنَّ هناكَ مجلسٌ واحدٌ...

عظيمُ الشَّأن

رفيعُ الدَّرجة

سامقُ المنزلة

مجلسٌ جَلَسَهُ الصَّحابةُ رضوانُ الله عليهم، فنزلَ منْ أجلِه جبريلُ عليه السلام

أرسلَ الله جبريلَ عليه السلام من فوقِ سبعِ سموات يخبر النبي ﷺ بخبرِ هذا المجلس

إنَّهُ مجلسُ العلم!

عمادُ الحَضارات، ورُكنُ العِزَّة والكرامات

زاد المتقين

موئل العلماء والمتعلمين

إنه العلم...

غذاءُ العقلِ والرُّوح

نورٌ وسطَ الظلمات، ومبدِّدٌ للجهالات

يرفعُ الله به الأمَّة، ويكشفُ عنها الغُمَّة

يُخرجُ النَّاسَ منَ ظُلُماتِ الجهل إلىٰ أنْوارِ المعرفة، ومِن أوْحالِ الأَوهام إلىٰ أركان اليقين، ومِن ذيلِ الحضارات إلىٰ أسمىٰ المقامات

فالعلمُ أجلُّ المآثر، وأكرمُ المفاخِر

هُو النُّورُ بينَ دياجي الجهل

وهو الكُوَّة[١] التي منها ينبثق ضوءُ المعرفةِ الحقَّة لترتفعَ بهِ هذه الأمة

ولذلكَ جاءَ هذا الدينُ الحنيفُ بالحثِّ علىٰ العلم

فبيَّن فضَائله، وعدَّدَ مزاياه

رفعَ مكانَتَه

وأعلىٰ دَرَجته

وأكرَمَ حامِله

ووقَّر باذله

وأَجزَلَ مثوبَة السَّاعي إليه

بلْ نَزَلَ منْ أجلِه جبريلُ عليه السلام يُخبرُ النَّبي ﷺ بمَنقبَةٍ عظيمة،

(١) فتحة في الجدار غالبا ما يوضعها فيها السراج.

ومكرمةٍ جليلة، يختصُّ الله بها من يجلس للعلم ويطلب مُذاكرته

وتلكَ المكرمة الرَّبَّانية...

من أجلِّ الهبات

وأرفَعِ المقامات

وأسْنىٰ العطاءات

فاسمع إلىٰ هذه المكرمة الربانية الأخَاَّذة

وكن صاحبَها قدرَ ما تستطيع

خَـرَجَ مُعَاوِيَـةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَلَـىٰ حَلْقَـةٍ فِـي الْمَـسْجِدِ، فَقَـالَ: مَـا أَجْلَسَكُمْ؟

قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ

قَالَ آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟

قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ

قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَـةً لَكُـمْ، وَمَـا كَـانَ أَحَـدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي

وَإِنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ خَـرَجَ عَلَـىٰ حَلْقَـةٍ مِـنْ أَصْـحَابِهِ، فَقَـالَ: «مَـا

أَجْلَسَكُمْ؟» قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا

قَالَ: «آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟»

قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ

قَالَ: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي، أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ» [مسلم- ٢٧٠١]

يخرجُ معاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علىٰ مجلسٍ من المجالس فيسأَلُهم ما ذا أجلسكم؟

فقالَ أهلُ المجلس: جلسْنا نذكرُ اللهَ ونحمدُه علىٰ ما هدانا للإسلام.

هنا انثالَت[1] الذكريات، ورجعتِ الذَّاكرةُ إلىٰ الوراءِ ليتذكَّرَ معاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمرًا وقَعَ في زمنِ النبيِّ ﷺ، فاسْتحلفَ أهلُ المجلس بأنَّهم لم يجلسوا إلا لذاك، وما هذا الاستحلاف تكذيبًا

(١) أي تتابعت علىٰ خاطره من كل ناحية.

لهُم، أو تهمةً لنواياهُم، ولكن لتلكَ المطابقةِ التي أذهلت معاويةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بينَ هذه القصةِ وقصةٍ عاشها معَ النبيِّ ﷺ

فلمَّا حلَفوا بأنَّهم لمْ يجلسوا إلّا لذاك اعتذَر لهم، وبيَّن أنَّهُ لم يستحلفهم تهمَةً لهم ولكن تذكَّرَ معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ذكريات حبيبة إلىٰ نفسه، ذكريات تعلق بها قلبه مع الحبيبَ ﷺ وقَدْ صَنَعَ نفسَ الصَّنيع

فقدْ خرَج ﷺ مرَّةً علىٰ أصحابه وهم جالسون، فقالَ ما أجلسكم؟

قالوا: جَلسْنا نذكرُ الله ونحمدُه علىٰ ما هدانا للإسلام

فقالَ ﷺ: **آالله ما أجلسكم إلا ذاك؟**

يستحلفهم النبي ﷺ وهو عالمٌ بعظيمِ حبِّهم لله ورسوله، ليس تهمةً لهم ولكن لخبرٍ كريم، وبشارةٍ جليلةٍ نقلها لهُم رسول الله ﷺ فقال:

«أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي، أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ»

اللهُ أكبر!

ما أَعظمَ هذه البشرىٰ

ليتَ نفسي ترىٰ وجوهَ الصحابة الكرام وهم جلوسٌ عند النبي ﷺ وهو يذكر لهم لقياه مع جبريل عليه السلام التي حملت في ثناياها خبرًا بأن...

الله العظيم في عليائه يذكركم، ويباهي بكم ملائكته!

كيفَ فَرِحَتْ تلكَ القلوب وهي تُبَشَّرُ بتلك البشرىٰ؟!

كيفَ ابتهجتْ تلكَ الأنفُسُ وهي تسمعُ أنّ الله العظيم فوق سبع سموات يذكرهم بل ويباهي بهم الملائكة؟!

أيُّ شيءٍ أكرم وأعظم من أنْ يذكركَ...

الرب العظيم

الملك الحليم

الرحمن الرحيم

وأنت الهَباءُ[1] في هذا الكون؟

(١) ما تطاير في البيت وتراه في ضوء الشَّمس شبيهًا بالدُّخان، ويُضرب به المثل لما لا يُعتدّ به

أن يذكركَ ملكُ الملوك وأنتَ العبد الضعيف الهشّ

أن يذكركَ من بيدهِ خزائنُ كل شيء، وأنتَ هنا علىٰ الأرضِ لا تكادُ تُذكر

أيُّ شيءٍ أجلُّ وأشرف من أن يباهي بك، ويُثني عَليك، ويذكرُك سبحانه وتعالىٰ، عند خلقٍ كريمٍ وهم الملائكة في الملأ الأعلىٰ

أي شيء أرقىٰ من أن يَخمُدَ ذكرُك في الدنيا ويُدَوَّىٰ باسمك في الملكوتِ الأعلىٰ؟!

فيا راجيًا ثناءَ ربِّك، ومريدًا عطايا خالقِك

ألا تُريدُ أنْ يذكرك ملك الملوك؟

ألا تريد أن يجلجل اسمك في الملكوتِ الأعلىٰ؟

ألا تريد أن تُذكر بين الملائكة؟

ألا تريد أن يتباهىٰ بك العظيم وأنت العبد الضَّعيف؟

فهلمَّ إذًا إلىٰ مائدة العلم

واسعَ إلىٰ يفاع[١] المعرفة

وانهلْ من معينِ الفقه

تطيبُ حياتُك

وترتفعُ بكَ أمَّتك

وتنتفعُ نفسك

ويعلو في السموات ذكرُك!

العلمُ ميراثُ الأنبياء، وحياةُ القلوب، ورفعةُ الأمم

هو نورُ البصائر

وشفاءُ القلوب

ورياضُ العقول

ولذَّةُ الأرواح

ويكفيه شرفًا وفخرًا أن كرَّم الله حامِلَه، فأشهَدهُ علىٰ أعظمِ

(١) المرتفع من كل شيء.

شـهادةٍ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

ولأجل هذا الشرف العظيم للعلم

فـرَّق الله بـين مـن يعلـم ومـن لا يعلـم ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]

فالعالمُ...

منزلتُه عاليةٌ سامقة

ومكانتـه سـاميةٌ باسـقة ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]

فيا مريدًا للدنيا عليك بالعلم

ويا مريدًا للآخرة عليك بالعلم

فإنه أجلُّ مـا يرفـعُ الإنسان بـه نفسه، وأعظـمُ مـا يُلبسه روحـه، وهو زينةُ الأتقياء، وسربَال[1] الأنقياء

(١) كل ما يلبس من قميص أو درع أوغيرهما.

بالعلمِ ترتفعُ الأمم، وتُبنىٰ الحضارات، وتشمخُ راية الإسلام عاليةً خفاقة

ولذلك كان كل هذا الفضلُ للعلم وطالبه حتىٰ جعلَ الله سالكَ طريقِ العلم سالكًا طريقًا إلىٰ الجنة، «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ» [مسلم - ٢٦٩٩]

وكل ذلك لأنَّ العلمَ...

به يُعرف الله ويُعبد

وبه يُدعىٰ ويُحمد

وبه تُنار طرقُ الدياجي الموحشات ويُرد الناسُ عن سُبُلِ الشيطان المهلكات

وبه تُعمر الأرض كما يريد الله، ويُرشد الناسَ إلىٰ ما يحبُّ الله

ونبني أمةً تعتزُّ بما شرَع الله، ولذلك لم يأمر اللهُ نبيَّه ﷺ أن يطلب التزود من شيء إلا من العلم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]

فالزمْ أبوابَ العلم، واثْنِ الرُّكبَ عندَ أهله، وابذلْ فيه وَقتكَ

وجُهدكَ ومالَك

حَلِّ به كلامك، وهذِّب به نفسك، وانفعْ به أمَّتك، واعلم أن الْمَلَائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ [حسنه الألباني في صحيح وضعيف النسائي- ١٥٨]

فماذا تريد أكثر؟!

الملائكة تضع أجنحتها لك

والله يرفعُ ذكرك، ويعلي شأنك

فكن للعلمِ راغبًا، ولمجالسه حاضرًا، وبه مشتغلًا عاملًا، وله ناشرًا

وكلمَا فترتْ همَّتُك، وتراخت عزيمتُك، وخَفُت نشاطك

تذكر أنَّ الله أرسل جبريلَ عليه السلام ليخبرنا بأنَّ حاضرَ مجالس العلم يباهي بهم الله ملائكته، فليكنْ جسدك في الأرض وذكركَ عاليًا في السماء.

(١١)

فيحبه جبريل

الحبُّ... جنةٌ وارفةُ الظِّلال، عذبةُ الأنهار، طيبةُ الثمار

الحبُّ... شجرةٌ باسقةٌ تحتضن بحبٍّ كلَّ من يأوي إليها، هو ذلك الأمانُ الذي يسكن قلب كل محب

الحبُّ... هو من أركان عبوديتنا لله، وتذَلُّلِنا له

هو سببُ تعايشنا مع بعض، وجلبِنا للخير، ودفعنا للضر، فالحبُّ هو أساسُ الحياة، وهو لذَّة الدنيا حين يتسرب إلىٰ خلجات قلوبنا

ما أجملَ الحب حينَ يكونُ صادقًا طاهرًا يُخلِّصُ الإنسانَ من قلقِ الحياة ليصل به إلىٰ شواطئِ السكينة والاطمئنان

هُوَ الأملُ الذي يشرقُ علىٰ القلوب فيسعدُها، ويدخلُ إلىٰ النفوس القلقة فيُبدِّدُ ظلمتَها، ويتسلَّلُ إلىٰ جوانح النفس فيغمرُها بالأمان والسكون

حبُّ الوالدين لأبنائهما

وحبُّ الأخ لأخيه

وحب الصديق لصديقه

وحب الزوج لزوجته

حبُّ الإنسانِ لكل ما هو جميل ونافع هو ما يجعل لهذه الحياة طعمًا، ولهذه الدُّنيا بهجةً مشرقة

الحبُّ بسمةٌ حانية تمحو تجاعيدَ القلوب

رفَّةُ[١] ورقةٍ خضراء تحوِّل القلبَ إلىٰ ربوعٍ ناضرة من الفأل والأمل

الضوءُ الذي نعبر به من دياجي متاهات الحياة

الفضاءُ الذي نُحلِّق فيهِ دون أن نشعر بخوف

إنّه روحُ الحياة... الحب

فكيفَ لو كان هذا الحبُّ من شخصٍ تحسبُه قريبًا من الله، من عالمٍ بأمر الله، منتهٍ عن نواهي الله، خاشعٍ عند باب الله، كيفَ شعور الإنسان حين يكون حبّه في الله، يجتمعان علىٰ خير، ويفترقان إلىٰ خير، ويتواصيان بالخير

وقدْ كنتُ كثيرَ التساؤلِ لنفسي: كيف باتَ معاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تلكَ

(١) الناضرُ الرَّفَّافُ الشديدُ الخضرة من النَّبْت.

الليلةُ التي همَس فيها النبيُّ ﷺ في أذنه بكلماتٍ فقال: «**يا معاذ، والله إني لأُحبُّك، والله إني لأُحبُّك...**» [صححه الألباني، صحيح أبي داود - ١٥٢٢]

يا الله...

كيفَ سمعها معاذٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، كيف عدَّ حروفها حرفًا حرفًا وهو يسمعها من أعظم البشر ﷺ، كيف كان شعورهُ وهو راجعٌ إلىٰ بيته وصدىٰ قَسم رسول الله ﷺ يتردد في قلبه: «**والله إني لأحبك**»

هذا فقط حبُّ البشر، فهل سألتَ نفسك يومًا كيفَ لو كان هذ الحبُّ من الله؟

كيفَ لو أنَّ مخلوقًا ضعيفًا هشًّا منكسرًا مثل الذرة هنا علىٰ الأرض لكن...

الله... الملك العلام... رب البريات

يحبه من فوق سبع سموات

اسمع إلىٰ هذا الحبِّ من...

ربِّ السموات... عظيم الأعطيات سبحانه

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ

ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ

قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ

وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ

ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ» [مسلم- ٢٦٣٧]

إِنَّهُ كرمُ الله يتوالىٰ، ونِعمُه تنثال[1] علىٰ المؤمنين، وآلاؤُهُ تتواصلُ علىٰ المتَّقين

لا يَكتفي اللهُ بأن يثيب عبادَه بل يحِبُّهم، ويواليهم

فإذا أحبَّ الله عبدًا من عباده أغدَقَ عليه بالخيرات، وأنعمَ عليهِ بالمسرَّات

ويكفي العبد الفقير الضعيف فخرًا وتيهًا وشرفًا أن يحبه الله

(١) تتابع.

المولىٰ العليم

وإذ أحبَّ اللهُ عبدًا من عبادِه يدعو جبريل عليه السلام، فلا يكتف بحبِّه وحدَه سبحانه وبحمده، بل ينادي أكرمَ الملائكة جبريل عليه السلام

فيقولُ له المولىٰ جلَّ جلاله: إنّي أحبُّ فلانًا فأحبه

يا الله كيفَ لهذا العبدِ الضَّعيفِ الفقير أن ينادي اللهُ اسمَه في الملأِ الأعلىٰ ويقولُ إني أحبه!

فيحبُّه جبريل عليه السلام، حبًّا لما يحبُّه الله

ثم ينادي جبريلُ عليه السلام في أهل السَّماء ويقولُ إنَّ الله يُحبُّ فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء

ولا يُكتفىٰ بكلِّ هذا الحبِّ من أهلِ السَّماء بل يَكتبُ له القبول في الأرض فيحبه أهلُ الأرض!

هل رأيتَ كيفَ يحبُّ الله عبادَه؟

كيف يواليهم ويقربهم؟

إذا أحبَّ الله عبدًا من عباده...

ضجَّ باسمه الملكوت الأعلىٰ!

تخيَّل

وأنتَ في الأرضِ هُنا...

تسيرُ في كنفاتها

وتمشي في وديانها

وتتقلب بين جنباتها

وأنتَ هنا في هذه الأرض...

ينادىٰ باسمك عند جبريل عليه السلام

ينادي أكرمُ الأكرمين باسمك

ويخبرُ بحبِّك فيحبُّك جبريل عليه السلام

ثم يجلجلُ باسمك عندَ أهلِ السماء

عندَ الملائكةِ الكرام

باختلافِ هيئَاتِهم وأشكالِهم وأعمالهم

يُدَوَّىٰ باسمك بينَ الملائكةِ العظامِ الكرام

بين عددٍ لا يعلمُهُ إلا الله، بين الملائكةِ الذين يعبدون ولا يفترون

ويُسَبِّحون ولا يَسْأمون

يُنادىٰ باسمكَ بينَ هؤلاءِ كلِّهم فيعرفونَك ويحبُّونك كلهم!

يا الله كيفَ لعبدٍ ضعيفٍ فقير أن يكونَ بهذا الشأن العظيم، ولكنه حبُّ الله تعالىٰ وموالاتُه لعبدِه، فيعلي شأنَه، ويرفعُ درجته، ويُسْمي منزلَتَه

وليسَ هذا الحبُّ من أكرمِ الأكرمين إلا لإيمانِ العبد وتوحيده ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦].

يُحبُّه الله تعالىٰ ويواليه، وتُحبُّه الملائكة، وتُحبُّه قلوب المؤمنين في الأرض لأنه أحبَّ الله وأطاعه، وتقرَّبَ منه، وتذَلَّل إليه، لأنه أَخلص له العبادة، وتقرب إليه بالطاعة، وقدَّم حبَّه علىٰ كل حبٍّ الدنيا

يُحبُّه الله لأنَّه أحبَ نبيَّهُ ﷺ

أطاعه فيما أمر، واجتنبَ ما نهىٰ عنه وزجر ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١]

إذا أحب الله عبدًا كتبَ له حب سائر الخلق

وإذا أحبَّ الله عبدًا هداهُ إلىٰ الصراط المستقيم، وخلَّصه من سبلِ الجحيم ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]

وإذا أحبَّ الله عبدًا نصرَه وآزرَه، ورمَّمَ كسرَ قلبه، وجَبَر ضعف نفسه

إذا أحبَّ الله عبدًا أعطاهُ كلَّ ما يرجو، وأمَّنه ممّا يخاف

فإذا كانَ الله وليُّك فمن ذا يعاديك؟ وإذا كان الله نصيرُك فمن ذا يكسرك؟ وإذا كان الله يحبُّك فماذا تخسر من هذه الدنيا؟!

هذا هو حبُّ الله لعبادِه وولايته لهم، فهل سألت نفسكَ يومًا كيف يحبُّك الله؟

كيف تنال هذه المنزلة العالية؟ والدرجة السامية؟

كيف يعرفك كلُّ الملائكة بعظمتهم وأنت عبدٌ ضعيفٌ علىٰ وجه الأرض؟!

يجيبك عنه الله سبحانه وتعالىٰ في الحديث القدسيِّ العظيم:

«مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ

حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ» [البخاري-٦٥٠٢]

يا الله

يدافعُ عنك الله

ينصركَ المولىٰ القدير

فإذا أردت أنْ يحبَّكَ الله آمن به ووحِّده

تقرَّب إليه بالواجبات

واستزد من النوافِل والقُربات

حين تمشي في رضوانِ الله يحبك الله ويحبك أهل السماء والأرض

يحبكَ الله فيمطرُ علىٰ قلبك بكلِّ هذه الهبات

إذا كانَ الله وليك

يدَبِّر أمرَك

يغنيكَ إذا افتقرت

ينصركَ إذا ضَعُفت

يشفيك إذا مرضت

يأخذ بيدكَ من مواطنِ الضعف إلىٰ مواطنِ القوة

ينتشلُك من دوَّامات الهمِّ إلىٰ روابي السعادة

يزرعُ في قلبك مروج الأمل والإيمان، ويضفي علىٰ حياتك جنات الرضىٰ والأمان

فأرض ربَّك...

ولو بسخط الناس يرضىٰ عنك الله ويرضي عنك الناس

(١٢)

يا جبريلُ اذهب

علىٰ هذه الأرض تمرضُ وتجزع، تفرحُ وتترح

تئنُّ من الآلام، وتُنغِّصُ عليك الأسقام

هاهُنا قد تكون...

أحلامٌ مُؤَجَّلة، وآمالٌ مُغتالة، وأُمنياتٌ مُعلقة

هُنا لا تكتملُ الفرحة، ولا تَتِمُّ البهجة

فيا صاحب كل هذه الأحلام المعلقة

ويا راغبًا في تبدد كل سحائبُ الحزنِ عن قلبك

هلمَّ سعيًا إلىٰ... الجَنَّة فهي الوطن، وهي الدار المستقر، وكل ناقص هنا سيكتمل هناك!

الجنة...

نعيمٌ أبدي

حياةٌ دونَ ممات

شبابٌ دون هرم

سعادةٌ لا تنتهي

بهجةٌ لا تنقطع

هناكَ في الجنة ترانيمُ الشُّجون، تميسُ[١] الأغصانُ دلالًا من فوقك، وتتغنَّجُ الأزهارُ من حولك، وتتبخترُ الأشجارُ بقربك

هناك في رياضِ الجنان، الأنهارُ تجري من تحتك، الثمارُ تدنو لك، الولدان يخدمون، والملائكة يسلمون

هناكَ فاكهةٌ مما يتخيّرون، ولحمِ طيرٍ ممَّا يشتهون، هناك المؤمنون في سدرٍ مخضود، وطلحٍ منضود، وظل ممدود

نعيمٌ لا ينقطع، ورخاءٌ لا ينصرم، ونضارةٌ وسعادةٌ لا تنتهي

الجنة هي الأحلامُ التي علىٰ الأرض قد بُترت، والآمالُ التي قد تأجَّلت، هي نهاياتُ الأحزان، وبداياتُ أفراح الأرواح والأبدان

هي جنَّةٌ طابتْ وطابَ نعيمُها ... فنعيمها باقٍ وليس بفان
دارُ السَّلام وجنة المأوىٰ ومنـ ... ـزلُ عسكر الإيمان والقرآن
فالدارُ دار سلامةٍ وخطابهم ... فيها سلامٌ واسم ذي الغفران

هذه الجنة خلقَها الله لعباده

فمن يدخلها؟

---

(١) تتغنج وتتبختر.

وما سبيلُها وطريقُها؟

أكرمَ الله جبريلَ عليه السلام فدخلها ورآها ليَبيِّنَ لهذه الأمة طريقَها، ويكشف سبيلها، ويبين طريقَ الوصول إليها

وأمر الله جبريل فدخل النار كذلك ليبين لنا أيضًا سُبُلَها وطرقها لنتجنبها، فاسمع إلىٰ جبريل عليه السلام وهو يحدِّث عنها:

قال رسول الله ﷺ: «**لما خلق الله الجنَّة قال لجبريل اذهب فانظر إليها**

فذهبَ فنظرَ إليها ثم جَاءَ فقال: أي رب وعزَّتك لا يسمعُ بها أحدٌ إلا دخلها

ثم حَفَّها بالمكاره، ثمَّ قال يا جبريل اذهب فانظر إليها

فذَهبَ فنظرَ إليها ثم جاء فقالَ أي رب وعزتك لقدْ خشيتُ أنْ لا يدخُلَهَا أحد!

قالَ فلمَّا خلق الله النار قالَ: يا جبريل، اذهب فانظر إليها

فذهَبَ فنظر إليها ثم جاء فقال أي رب وعزتك لا يسمع بها أحدٌ فيدخلها

فحفَّها بالشهوات ثم قال يا جبريل اذهب فانظر إليها فذهَبَ فنظر إليها ثم جاء فقال أي رب وعزتك لقد خشيتُ أن لا يَبقىٰ أحدٌ إلا دخلها» [مسند أحمد- ٨٦٤٨].

يصطفي الله جبريلَ عليه السلام لإنزال الوحي

لنصرةِ الرسل

لإبلاغِ كلامِ الله

لمناداةِ أهلِ السماء وإخبارهم بأوامرِ الله

وهنا يختارهُ الله سبحانه وتعالىٰ ليدخلَ...

دار النعيم... الجنة

ودار الجحيم... النار

خلقَ الله الجنَّة فأرسلَ إليها جبريلَ عليه السلام وقال له انظر إليها

فلمَّا رأىٰ بهَاءَها وجمالها، وحُسْنَ منظرها، وطيبَ ترابها، وعذوبةَ أنْهارِها

ورأىٰ رياضها الخضراء، وبساتينها الغنّاء

رَجع إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ فأقسم وقال: لا يسمعُ بها أحدٌ إلا دخلها

فحفَّها الله بالمكاره، وزَرَع في طريقها مُتعبَاتُ الأنفس، وجعلَ

طريقَ الوصولِ إليها عبر التَّقرُّبِ إلىٰ الله بالطَّاعات، لا يصلُ إليها ـ بعد رحمة الله ـ إلا بالإيمان والعمل لا بالأماني والكسل

فلما حفَّها الله بالمكاره أرسلَ الله إليها جبريلَ عليه السلام مرَّةً أخرىٰ فرجع علىٰ الله يقول: لقد خشيتُ أن لا يدخلها أحد!

إنها الجنَّة سلعةٌ غالية

جناتٌ ونهر، وروابي وشجر، قصورٌ وفرشٌ وخدم

فابذل الثمن إن كنتَ تريدها، وكافحْ بالعمل منْ أَجلها، وثابر علىٰ الطَّاعاتِ للوصول إليها، فإنَّها لا تُنال بالأماني، ولا تُدرك بالتَّواني

وعلىٰ العكسِ من الجنة هناك دارٌ أخرىٰ، لمَّا خلقها اللهُ أرسل إليها جبريلَ عليه السلام فلما رأىٰ وِديانها وحِمَمَها، وماءها وسمومها[1]، ورأىٰ زقُّومها وحميمها، رجع إلىٰ المولىٰ فقال: لا يسمعُ بها أحدٌ فيدخلها !

فحفَّها الله بالشّهوات، وملأَ طريقها بالملذات، وزيَّن سبيلَها

(١) السموم هو الهواء الحار

بالمغريات، فرآها جبريلُ عليه السلام مرة أخرىٰ وهي علىٰ هذه الهيئة فقال: أي رب وعزتك لقد خشيتُ أن لا يبقىٰ أحدٌ إلا دخلها!

وهكذا ابتلاءُ الله لعباده، وامتحانُهُ لخلقه

خلَقَ لهم دارين، وهداهُم النَّجدين، وبيَّن لهم الطريقين

أرسلَ لهم رسلَه، وأنزلَ عليهم كُتُبَه، وبين لهم ما يُحبُّه ويكرهه، وجعل لهم سبيل الاختيار،

فإمَّا إلىٰ جنةٍ وإما إلىٰ نار

فيا طالبًا طيب الحياة، وراجيًا رغدَ العيش، وراغبًا دَعَة[1] المقام

إلزمِ الطَّاعات، وتمسَّك بالقُربات، وقدم مرضاتِ رب البريات، وجانبِ الشهوات، واترك المحرمات، تفزْ بجنةٍ عرضها الأرض والسموات

إنَّها الجنة أيتها النفسُ التَّوَّاقة، سيقانُ أشجارها من ذهب، ملبسُ أهلها الحرير والاستبرق، ومطعمهم ما تشتهيه الأنفس، ومشربهم أنهارٌ من ماءٍ غير آسن[2]، ولبنٍ لم يتغير طعمُه، وخمرٍ لذةٍ

(١) الرغد والرفاهة.

(٢) أي غير متغير.

للشَّاربين، وعسلٍ مصفىٰ

خلقها الله للمُؤمنين، وَغَرَس أشجارها للصَّادقين، وبنىٰ بيوتَها وقصورَها للمخلصين

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢]

فإذا تروم الوصول إليها فاعرف مولاك

وتقرب لخالقك رجاء نيل رحمته في دار كرامته

واخشع لله رب العالمين حبًا له جل شأنه

امتنع عن معاصيه

وابتعد عن محرماته خوفًا من الحساب بين يديه سبحانه، يبدلك الله به أمنًا وأمانًا في جناتِ النعيم ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]

﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]

وإذا أردت سُكنىٰ الجنة، ورُمت قصرًا من قصورها فهاك

وعودًا صادقة منه ﷺ...

ابن بيتًا لله، قال ﷺ: «مَنْ بَنَىٰ مَسْجِدًا لِلَّهِ كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ، أَوْ أَصْغَرَ، بَنَىٰ اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ» [ابن ماجه- ٧٣٨ وصححه الألباني]

حرِّك الأقدام صوب بيت الله العلام، قال ﷺ: «مَن غَدا إلىٰ المَسجدِ وراح، أَعدَّ اللهُ لَه نُزُلَه مِنَ الجنَّةِ، كلَّما غَدا أو راحَ» [البخاري - ٦٦٢]

صِلِ الرحم، وإن قطع وهجر، ففي الحديث: «ألا ترضَين أن أصِلَ مَن وصَلَكِ، وأقطَعَ مَن قَطَعكِ؟ قالت: بلَىٰ يا ربِّ، قال: فذاك» [البخاري - ٤٨٣٠]

أحسن إلىٰ القريب والغريب من الخلق والبشر، قال ﷺ: «إنما يرحمُ اللهُ من عبادِهِ الرحماءَ» [البخاري - ١٤٨٢]

أخلص في العبادة، تابع الصدقة، تفقد الجار، خَلِ القلب من الأحقاد وتعاهده بالعفو والصفح والتواضع وتعظيم الله آناء الله وأطراف النهار

وإذا أردت مرافقةَ نبيك ﷺ في الجنة فاكفل يتيمًا، قال ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا» وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَىٰ [البخاري - ٦٠٠٥]

تلكّ الجنَّةُ البهيَّة جعلها الله ثوابًا لمن حَسُن خُلقه، ولانَ

جانبُه، يقول ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ» [ابن ماجه- ١٣٣٤ وصححه الألباني]

هي الجنة يا عبد الله

ترابُها المسك، وحشيشُها الزعفران، ولبناتها الذَّهبُ والفضة

تلك الجنة، أعدَّ اللهُ فيها لعباده المؤمنين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ علىٰ قلب بشر

دخلها جبريلُ عليه السلام فأتاك بالخبر اليقين

سيدخُلُها بعدَ رحمةِ الله...

من لزِمَ الطَّاعة، وآثر العبادة

يدخلُها من تغَلَّب علىٰ شهوات نفسه

من جمحَ نفسه الأمَّارة بالسوء

من تغلَّب علىٰ وساوس الشيطان

من صبرَ علىٰ المكاره

فيا صاحبَ الهمَّة العالية

لن يرتوي قلبُك إلا بنسائم الجنان

ولن تكتحلَ عينُك إلا برؤية المنان

فاعمل لدار البقاء رضوانُ خازنها الجارُ أحمد والرحمن بانيها

أرضٌ لها ذهبٌ والمسكُ طينتها والزعفرانُ حشيش نابت فيها

أنهارها لبنٌ محضٌ ومن عسل والخمر يجري رحيقا في مجاريها

من أجل الجنة

غُضَّ الطرف عن غمغمات الوجع والشكوى، وانطلق في دنياك تغرس الإحسان، وقل لنفسك حين تذوق تعب الطاعة، ومشقة العبادة:

صبرًا يا نفس فالموعدُ الجنة

(١٣)

كان يلقاه

الرُّوحُ الأمينُ جبريلُ عليه السلام

أمينُ الوحي

ورسولُ السَّماء

صاحبُ الخِلقة الباهرَة

والجمالِ البهيّ

والمكانةِ العالية

نزلَ علىٰ رسول الله ﷺ بالوحي، وظلَّ مرافقًا له طيلةَ حياته المباركة ﷺ

كانَ ينزلُ علىٰ النبيِّ ﷺ يجلسُ معه، يعلِّمه، يرشدُه، فهو رفيقُه في الملمَّات، ومرشدُه إلىٰ الخيرات، ومعينه في الأوقات المُدلهمات[1]

وقد كان لجبريلَ عليه السلام عادةٌ معَ النبي ﷺ لا تنقطِع، ولقاءٌ

(١) المدلهم هو الشديد الظلمة، أي في أوقاته التي يغتمُّ فيها ويحزن ﷺ.

محدَّدٌ لا ينجذِم[١]

يتجدَّدُ كلَّ عام، ويتكرَّر كل سنة

إذا حانَ ذلك اللقاءُ تغيَّر النبيُّ ﷺ...

كثُر خيرُه

وازدادَ إحسانه

وتضاعفَ جوده وكرمه فرحًا واستبشارًا بذلك اللقاء

وكيف لا يكونُ لهذا اللقاء كلَّ هذا الأثر وفيه يجتمعُ أكرمُ الملائكة جبريل عليه السلام معَ أعظمِ البشرِ محمَّدٍ ﷺ، في أشرف زمانٍ وهو شهرُ رمضان، لأمرٍ كريم، وخطبٍ عظيم

إنه مدارسة القرآن الكريم

عقدٌ جواهرُه اكتملت، وقلادةٌ حللها قد تمَّت، شرفُ الزَّمان، وشرفُ الموضوع، وشرفُ الدَّارسان

كيفَ لا يتغير النبيُّ ﷺ وهو يجلسُ في شهرٍ كريم، في لقاءِ ملكٍ كريم، يدارسُه أجلَّ الكتب وأكرمَها وأعظمَها وهو القرآن الكريم؟!

لقيا كريمة، ومدارسةٌ مباركة، يقابلُ فيها جبريلُ عليه السلام النبيَّ

---

(١) لا ينقطع.

ﷺ شهرًا كاملًا يعرض عليه القرآن ويستمع منه القرآن، فانظر كيفَ كان حالُ النبي ﷺ مع هذه المدارسة..

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، إِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام كَانَ يَلْقَاهُ، فِي كُلِّ سَنَةٍ، فِي رَمَضَانَ حَتَّىٰ يَنْسَلِخَ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ» [مسلم- ٢٣٠٨]

هل رأيتَ كيف كانَ حالُه عليه الصلاة والسلام؟

كيف غيَّر فيه القرآن؟

كيفَ أثَّرت فيه مدارسةُ القرآن؟

كيفَ زاد جوده؟

كيف عَظم إحسانه؟

كيف تضاعف بره وعطاؤه؟

يحكي في هذا الحديث ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كريم صفاتِ النبي ﷺ فيقول: كان أجودَ الناس بالخير، أي في سائر أيَّامه، وكانَ أجودَ

ما يكونُ في رمضان فيزدادُ جودًا علىٰ جوده، وإحسانًا إلىٰ إحسانه

وكانَ أجودَ ما يكونُ حين يلقاهُ جبريلُ عليه السلام فيعارضه القرآن حتىٰ كأنه ﷺ أجودَ بالخير من الرِّيح المُرسلة

الله أكبر

ما أعظمَ عطايا هذا القرآن المبارك

وما أشدَّ هباته

وما أكثَرَ خيراته

ينزلُ من عندِ الله سبحانه وتعالىٰ مرشدًا للناس، معلِّمًا لهم الخير، منقذًا لهم من ظُلماتِ الجهل والشرك، ثم يرسلُ الله جبريل عليه السلام كل عام ليتدارسه مع رسول الله ﷺ فيغيِّرُ ذلك من رسول الله ﷺ، فيجودُ بكل شيء حتىٰ ليكون أجود من الريح المرسلة

يا لهُ من مشهدٍ عظيم

حينَ يجلسُ أكرمُ الملائكة جبريل عليه السلام بالقرآن الذي نزل به

يجلسُ مع النبي ﷺ بالقرآن أُنزل عليه

يجلسان يتلوان كلامَ الله، ويتدارسانه

وذلك في كل ليلة من ليالي شهرِ رمضان

فيغيرُ ذلك من حال النبي ﷺ فرحًا واستبشارًا بنزول جبريلَ

عليه السلام، فإن في نزوله محط البركات، وتواردِ الخيرات

فيجودُ النبي ﷺ بالخير، يحسنُ كما أحسن الله إليه بهذا اللقاء

وقد كانَا في هذا اللقاء المبارك يتدارسان القرآن الكريم مرة واحدة، إلا أنه في العام الذي توفي فيه النبي ﷺ عارضهُ جبريل عليه السلام مرتين كما في حديث فاطمة رضي الله عنها [البخاري- ٣٦٢٣ ومسلم - ٢٤٥٠]

إنه القرآن

روحُ الحياة، وحياةُ الروح

من عمل به نجَىٰ، ومن تدبَّرهُ حازَ العُلىٰ، ومن حفظَه نال المُنىٰ

يلملِمُ شتات القلب إذا تشظَّىٰ، ويجبِرُ كسر الفؤاد إذا تعنّىٰ، ويُسْكن ضياعَ الروح، ويُبدِّدُ ضيقةَ الفؤاد

فعليكم بالقرآن ومدارسته، وتدبره، وحفظه، والعمل به، وتلاوته

فإنه نورٌ للعقل، وهدايةٌ للقلب، ومنجاةٌ للعبد

هو وحده منارٌ للحياة

وضياءٌ يشتِّتُ ظلمات القلوب

وشعلةٌ منيرةٌ تضيء لك دياجير[١] السُّبل

ومهما تعدَّدت أمامكَ الطرق، والتبسَتْ عليكَ السُّبل، واختلطت عليك رايةُ الحق بغيرها، وأصبحت تائهًا في فيافي الشكِّ والحيرة عليك بالقرآن ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]

إنه القرآنُ الكريم يتدارسه جبريل عليه السلام مع النبي ﷺ فيغيرُ من حاله، ويُبدِّلُ من عمله، ويجعلُه أجودَ بالخير من الريح المرسلة، وهكذا القرآنُ يفعلُ في قلوب المؤمنين، ينحتُ فيها الإيمان، وينقشُ فيها الصدق واليقين، ويزيل عنها غشاوات التجبر، فقلوبُ أهل القرآن الكريم ألينُ القلوب، وأخشعُ الأفئدة ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]

إنهُ القرآن

سراجُ الحائرين، وهادي الضالِّين

---

(١) الديجور هو الظلمة.

وشفاءٌ للمؤمنين، وتبصرةٌ للمتقين

فالمفلحُ من قرأ القرآن، والفائزُ من تمسك بالقرآن، والناجي من عاش في ظلال القرآن، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ [فاطر: ٢٩- ٣٠]

فرتِّل آياتِ الله...

ترْقَ به كلَّ عالٍ

وتنالُ به كل غالٍ

اقرأ كتابَ الله في حالكاتِ الليالي

رتِّله بخشوع

وتدبَّرهُ في خضوع

واستشعر أن ما تقرؤه هو آخر كلامٍ لله أنزله لأهل الأرض

يخاطبكَ الكريم

ويدعوكَ العظيم

ويقصُّ عليك العليم

ويبشِّرك الرحيم

فانهل من معين كتاب الله تكن ممن قال عنهم النبي ﷺ: «**إنَّ لله تعالىٰ أهلينَ من الناس**»، قالوا : يا رسول الله من هم ؟ قال : «**هم أهل القرآن أهل الله وخاصته**» [صححه الألباني في صحيح ابن ماجه ١/ ٢٨٧]

إنه القرآن

رفيقُكَ الذي لن يتركَك في الأزمات، ولن يسلمك للجائحات

هو بلسم حياتك، ونور قبرك، وشفيعٌ لك في آخرتك، يقول ﷺ: «**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه**» [مسلم - ٨٠٤]

وخير الناس هم أهلُ القرآن «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» [البخاري - ٥٠٢٧]

فتمسك يا كريم بكتابِ ربك، رتِّلهُ آناء الله وأطرافَ النهار، فالعيش مع القرآن عيشٌ كريم، والحياة معه حياةٌ مستقيمة

استشعر وأنت تقرأ القرآن أنك تقرأ كلامَ الله الملك العلَّام، فيا لها من نعمة، وما أعظمها من منحة

هو النُّور لا يحجبه ظُلمات الطغاة، ولا تجبُّر العصاة، ولا يزال

برحماته ونفحاتِه يأسرُ القلوب والألباب

هو القرآن جبرُ القلوب حينَ تنكسر، ورتقُ[١] النفوس حين تنشطر، والحبلُ المتين لكل منهزم، والرَّوحُ والريحان لكل مهموم، وأمنٌ وأمانٌ لكل مغموم

هو النور تُبصرُ به عثراتِ الطريق، يرفُّ بنداهُ علىٰ حياتك فيجعلها روابيَ مزهرة، وبساتين مبهرَة

يهبُ لك أنفاسَ الرحمات، ويُسكن قلبك بنسائم البركات

إنه القرآن الكريم

من أجله ينزلُ جبريلُ عليه السلام إلىٰ النبيِّ ﷺ كلَّ ليلةٍ من ليالي رمضان

يدارسه، ويعرض عليه، ويستمع منه

فيكونُ النبي ﷺ عند ملاقاة جبريلَ عليه السلام أجودَ ما يكون حتىٰ كأنه الريح المرسلة

---

(١) الرتق هو الإصلاح.

فتأسَّ بنبيِّك، واقتد بحبيبك ﷺ

تشبَّث بوصيته عندما دعاك إلىٰ تلاوته وعدَمِ هجرانه

القرآن...

يعيدُ الحياةَ إلىٰ قلبك

يرمِّم حطامَ الوجع في صدرك

يجعلُ الحياة في صدرك خضراء مفعمة

وتذكَّر أن القرآن غيَّر من حال النبي ﷺ

فغيِّر به من حالك

وارو به ظمأ قلبك

وكن من أهل القرآن تكون من أهل الله وخاصته.

(١٤)

عِشْ مَا شِئْتَ

يعيشُ الإنسانُ في هذه الدنيا مبحرًا بين أُمنياته وحاجاته

يتقلَّبُ في نعمِ الله، ويَتَدَثَّرُ بحُلَلِ خيراتِ الله، ويرْتَعُ في رُبىٰ كرمِ الله

يكافحُ في هذه الحياةِ متَشوِّفًا للمناصب، تائقًا للرُّتب العالية، يرومُ الوصولَ إلىٰ أحلامِه الكبيرة، وأمانيه الوردية، وفي خضمِّ هذه الحياة ومعترك العيش في جنباتها وأركانها، قد ينسىٰ أو يتناسىٰ الحقيقةَ الراسخة، والواقع الذي لا مهرب منه... إنه الموت.

مهما كان الإنسان بالغًا شأوًا عاليًا، وجاهًا رفيعًا

أو كان فقيرًا بائسًا، ومسكينا آيسًا

أو كان كبيرًا هرِمًا، أو فتًىٰ يافعًا

الجميع يصطف علىٰ قارعة الطريق المفضي إلىٰ... الموت

الحقيقة المطلقة والنهاية المحتومة

التي يُسلم بها جميع الخلق ولكن...

يغيب عن الجميع موعد نزوله، وساعة قدومه، ومكان لقياه

لحظةُ الانتقالِ من هذهِ الدُّنيا إلىٰ عالمِ الآخرة

الحدُّ الفاصلُ بينَ دبيبِ الرُّوح وسُكون الجسد

التوقفُ المُفاجئُ عن كلِّ شُؤون الحياة

الانتقالُ المفاجئ من مَراتعِ الصِّبا ورُبوع الفتوة إلىٰ ضيق القبر

إنه الموت...

يحضرُ دون ميعاد، ويأتي بغير ميقات

تذوي به الحياة، وينقطعُ به العمل، وتسقط معه آخرُ ورقةٍ في شجرة العمر

إنها النهاية التي كتبها الله لجميع الناس

وحينَ تحينُ تلك النهاية، حينها يكون الوصول إلىٰ بداية الرحلة عبر العالم الأخروي في أولىٰ محطاته

حينها...

لن يفيدنا فيها بعد رحمة الله إلا شيء واحد فقط... لأن

كلُّ شيءٍ سيزول

كلُّ حبيبٍ سيرحل

كلُّ صديقٍ سيفنىٰ

فما هذا الذي يبقىٰ لك بعد الموت؟!

تزود منه

تمسك به

تعرف عليه... في تلك الوصايا الندية الشجيةالتي أوصىٰ بها أعظمُ الملائكةِ وأكرمهم جبريل عليه السلام لأكرم الأنبياء رسولنا محمد ﷺ

يقولُ ﷺ: «**أتاني جبريل عليه السلام فقال: يا محمَّد !**

عشْ ما شئت فإنك ميِّت

وأحببْ من شئت فإنك مُفارِقه

واعملْ ما شئت فإنَّكَ مجزيٌّ به

واعلمْ أنَّ شرفَ المؤمن قيامُه بالليل

وعزُّه استغناؤه عن الناس» [حسنه الألباني في صحيح الترغيب - ٦٢٧]

يأتي جبريل عليه السلام إلىٰ النَّبي ﷺ كعادتهِ حينَ يزورُه ويعلِّمه ويرشده

يأتيهِ جبريلُ عليه السلام هذه المرة ليوصيه بوصايا جامعة، مُشجية، مُبكية، حقيقةٌ بالتأمل، وجديرةٌ بالتدبر

يقولُ جبريلُ عليه السلام:

«يا محمد، عش ما شِئت فإنَّك ميِّت»

ما أقصر هذه العبارة، وما أعمق تلك الحقيقة!

مهما عشتَ في هذه الدنيا، ومهما طالَ بك الأمل، واتَّسع منك الرجاء

مهما امتدَّت آمالُك نحو أُفُقِ السَّماء، واتَّسعت أحلامك في روابي الأرض

مهما طالت بكَ السّنون، وأحسنت بها الظنون وامتدت بكَ الأيام، وعشت فيها ساعاتك النضرة... ستأتي النهاية!

ستترجَّلُ[1] عن حياتك

سيتوقفُ المركب، وسيخْبو ضوء الحياة

«عش ما شئت فإنك ميّت»

إنَّها وصيةٌ خالدةٌ من أكرمِ الملائكة لأكرمِ نبيّ: ستموتُ يا رسول الله، سيموتُ كل أحد.

ثم يقولُ له: **«وأحبِبْ من شئت فإنك مفارقه»**

---

(١) أي ستنزل، والترجل من الفرس يعني النزول عنه.

إنَّها دارُ الفناءِ لا دارُ البقاء، دارُ الترحال لا دارُ القرار

لنْ يَصفوَ جليسٌ لجليسِه، ولن يبقىٰ حبيبٌ لحبيبه، ولن يدومَ رفيقٌ لرفيقه

سيرحلُ الجميع، وسيبقىٰ اللقاء الأبديُّ هناك في الآخرة

ثم يقول له: «**واعمل ما شئتَ فإنَّك مجزيٌّ به**»

عملك...

هو الوحيد الذي سيظلُّ رفيقُك

الوحيد الذي سيُؤنِسُك أو يُوحشك

الوحيدُ الذي إذا رحلَ الجميع سيبقىٰ حبيس نفسك، جليس قبرك يرافقكَ حتىٰ النهاية حيث القرار، إما إلىٰ الجنة أو إلىٰ النار

إنه عملك فقط!

فما تريدُهُ في الآخرة قدِّمه الآن، وما تريد أن تسْكنَه في الآخرة ابْنِهِ الآن، وما تريدُ أن ترافقه في رحلة عالمِ الآخرة اصْنَعْه الآن، فالدُّنْيا فرصةٌ واحدة لن تتكرر، وعليها ستحدد مستقبلك الأبدي

جبريل عليه السلام يكمل وصاياه الندية الشجية، فها هو يتكلم مبينًا

أفضل تلك الأعمال:

«واعلم أنّ شرَفَ المُؤمِنِ قيامُه بالليل»

إنها اللحظات الخافتة حينَ تخلو بربِّكَ وحدكَ...

تُناجيه

تدعوه

ترجوه...

هي اللحظات الخافتة الهادئة في جنبات الحياة الدنيا وصخبها

ولكنها اللحظات الندية المباركة الزكية في صفحات العمل الصالح والشرف الخالد في عالم الآخرة

العملُ الذي يطلع عليه الله فيحفظه لك حينَ ترحل

العملُ الذي وافق جُنْح الظلام سيبدِّلهُ الله لك نورًا

الصلاةُ في دياجي الظلمات ستكونُ لك كوكبًا دُرِّيًّا هناك... في الآخرة

ثم يقول له عليه السلام: «وعزُّه ــ أي المؤمن ــ استغناؤُه عن النَّاس».

فالناسُ سيرحلون، وهم وإيَّانا علىٰ متنِ رحلةٍ واحدةٍ سينزل منها كل أحد في محطته ولا يغنيك إلا الله الواحدُ الأجلُّ الأكرم.

«عِشْ ما شِئتَ فإنَّك ميِّت»

ليستْ كلماتٌ تدعوكَ إلىٰ نبذِ الدُّنيا، أو تُلجِئُك إلىٰ الانعزال، أو ترميك في غياهب[1] الهمِّ والحزن، بلْ هي حقيقةٌ واضحةٌ لتعيشَ حياتك الدنيا بكل حبٍّ وإخلاص، لتقدم الخيرَ للنَّاس، لتبذُلَ المعروف، وتعينَ الملهوف، لتقفَ في حاجات الأيامىٰ، وتتفقَّد أحوال اليتامىٰ، لتُقدِّمَ لآخرتك كلَّ عملٍ صالحٍ، لتُزيِّنَ دُنْياكَ بطاعة الله

إنَّها الحقيقةُ الواضحة لتتزوَّد لها، لتعملَ منْ أجلِها، لتعرفَ أنَّ كلَّ منْ في الأرض إلىٰ زوال، وسيبقىٰ عملك الصالح جنةً وارفةً تظلكَ بظلالها.

إنّها الدنيا... لا تساوي شيئًا، لن نرحل منها إلا بقطعة قماش تاركينَ خلفنا كل شيء... إلا العمل.

عملنا...

وحده الذي يبقىٰ معنا، يقول النبي ﷺ: «يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلاَثَةٌ،

(١) ظلمات، مفرده غيهب.

فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَىٰ مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَىٰ عَمَلُهُ» [البخاري - ٦٥١٤]

هناكَ في آخر النفق، في بدايةِ الحياةِ الحقيقية، في عالمِ البرزخ: لنْ يكون رفيقُك إلا عملك، تزولُ كلُّ غشاوات الحياة الهشَّة ويبقىٰ يقينُ العمل

يا الله!

كمْ أَثْقل حبُّ الدنيا أرواحنا

كمْ أنهكت قلوبَنا

كم أصابتنا الحياةُ بالغرور ونسينا أن نقدم شيئًا لدارنا الأبدي

فلا تلهثْ وراء هذه الدنيا

كنْ فيها سمحًا محبًّا، مخلصًا نافعًا، تقدِّمُ الخير، وتجلبُ السعادة، وتنشرُ الفأل، وتزيُل الضر

كن عبد اللهِ النافعِ للناس، السَّاعي في مصالحهم، القاضي لحوائجهم

قدِّم أعمالك اليوم لتَجِدَها غدًا حُلوة نَضِرَة

قدمْ عملك الصالح ولا تطمع في دنياك، ولا تغترَّ بجاهك، أو تتبختر بمالك، فليسَ لك منه «إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ

فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ» [مسلم - ٢٩٥٨]

إنها سُنَّةُ الله في كونه فتذكرها دائمًا **«عِش ما شئت فإنك ميِّت، أحبب من شئت فإنك مفارقه»**

كم كانَ بيننا من أحبابٍ وأصحاب، نعِمْنا بهم، وأنسِنا بقرْبهم، وفجأةً غادرونا نحو عالِمٍ آخر، انسَلُّوا من بين أيدينا دونَ ميعاد، غادرونا دونَ أن يستطيعوا قول كلمة وداعًا لأقرب الناس لهم!

فكُلَّما دعتك نفسُك إلىٰ معصية

أو زَيَّنَ لك الشيطانُ ذنبًا

أو دَعتكَ مغرياتُ الفتن إلىٰ اقتراف المعاصي

تذكر وصية الحبيب ﷺ: **«أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ»** [صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب - ٣٣٣٣]

فلْنَبْنِ قبُورنا بالإيمان وحسن العمل، ولنُمَهِّد لنَعيمِنا بالطَّاعات، ولنستضيء بأنْوارِ التفاؤل، ولنتفيأ بظلالِ الأمل، فأعمالُنا لن تضيع، وجهودنا لن تذهب سدىٰ

هنيئًا لمن قدم أعمالًا صالحة

هنيئًا لمن صفَّ قدميه في جُنحات الظلام، يرفع أكفَّ الضَّراعة

إلىٰ الملك العلَّام؛ لينير له دروبَ الحياة، ويوسِّع له ضيق القبر

بوصيَّة جبريل عليه السلام...

عاش النبيُّ ﷺ حياةَ الإيمان والعمل الصالح

وبوصية جبريل عليه السلام...

عاشَ الصحابةُ الكرام، فعاشوا لله ومع الله

وبوصية جبريل عليه السلام...

عاشَ المؤمنون الصادقون في الدنيا، فهم قد استخدموها ولم يخدموها، وذلَّلوها ولم يتذَلَّلوا لها

وبوصية جبريل عليه السلام...

عشْ أنتَ أيها الكريم، ثِقْ بربِّك، وقدِّمْ عملك

وتذكر أنَّ ما تُقدِّمُه اليوم ستجني ثمرَتَه غدًا، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨- ٨٩].

(١٥)

يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ

نِعمُ الله عَلينا مُتتَالِية، وآلاؤُه علينا مُتَتَابِعَة، وعَطاياهُ علينا دائمَة، ومِنَحُهُ لنا مُستَمرَّة، ونفحَاتُه فينا مُتعاقِبة

إحسانُه إلينا نَازل، وخيرُه علينا مُنسكِب، وفَضْلُه علينا مُنهمِر، وخيرُه فينا مُستقِر

﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]

نعَمُ الله تغمُرُنا مِنْ فوقِنا وتحتِ أقدامِنا، وتُحيطُ بِنَا منْ بينِ أيمَانِنَا وشَمَائِلِنَا، وتحُفُّ بنَا من بينِ أيدِينَا ومِنْ خَلْفِنا

تُلاحقُنَا النِّعم منْ كلِّ حدبٍ وصوب، وتَنْزِلُ علينا الخيراتُ في كلِّ مكان، وتمطرُ علينا المِنَحُ الرَّبانية في كلِّ حين

تتنوَّعُ النِّعم

نعمةُ العينين، واليديْنِ والرِّجلين، واللِّسانِ والشَّفتين

نعمةُ الأمْنِ في الأوطَان، والصِّحَّةِ في الأبدان

نعمةُ الغِذاءِ والدَّواءِ والكِسَاء

تأكلُ طعامًا شَهِيًّا وتَكْرعُ[١] ماءًا زُلالًا باردًا

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]

ومن أجلِّ النِّعم، وأكبرِ العَطَايا، وأجْزَلِ الخيرات، وأعظمِ المِنَح

نعمةُ معرفةِ الله، والتوبةِ إليه، والتوكُّلِ عليه، والتودُّدِ إليه

يكشِفُ آلامنا، ويُخفِّفُ أوجاعنا، ويفرِّجُ هُمومنا، يُقيلنا من عثراتنا، ويسترُ زلَّاتِنا

أرسلَ إلينَا آخرَ رُسله ﷺ، وأنزلَ علينا خيرَ كُتُبه، وجعلنا من خيرِ الأُمم، وخَصَّنا بأن نكون أول من يدخلُ الجنة

نعمةُ الهداية إلىٰ هذا الدِّين القويم، دين الإسلام

نعمةُ هذا الدِّين العظيم الذي نَنْعَمُ بخَيراته، ونتدّثَّرُ بلبوس جماله، ونتَجمَّلُ بحلل عظمته، ونتزيّنُ بثياب جودِهِ وكرمِه

وَاللهِ لَوْلاَ اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا (البخاري ٤١٠٤)

الإسلامُ نعمةُ الله الكُبرىٰ، ومِنْحَتُه العظمىٰ

أنزلَهُ الله بواسطةِ جبريلَ عليه السلام علىٰ النَّبي ﷺ، واستمرَّ ثلاثةً

(١) أي تشربُ.

وعشرين عامًا ينزلُ بالوحي عليه، يأتينَا بتشريعات الله، وينزلُ علينا بأوامره ونواهيه،

يُعلِّمُنا الدين، ويبصرنا طريق الحق

وقد كانَ جبريلُ عليه السلام طيلةَ هذهِ السَّنوات يأتي النبيَّ ﷺ فيدراسُه ويعلِّمه ويُراجعُه ويأمره وينهاه

وكان يأتيهِ خفيةً لا يراه أحد، ويأتيه أحيانًا علىٰ هيئة رجلٍ يُعَلِّمُه، وقد جاءه علىٰ هذه الهيئة مرَّةً لأمرٍ عظيم، وخطبٍ جسيم، وخيرٍ عميم، فسأل النبيَّ ﷺ أسئلةً عظيمة، فيها مجامعُ الدين، وأصولُ الإسلام

وكانَتْ تلكَ الحادثةُ في آخر حياةِ النبي عليه السلام حيث اقتَرَبَ الوحيُ من الانقِطاع، وأوشَكَ جبريل عليه السلام علىٰ الانزواء، واقتربَتْ شرائع الإسلام من الاكتِمال، فجاءَ جبريلُ عليه السلام هذه المرَّة بأمورٍ جامعةٍ عظيمةٍ نافعة

قال عمرُ بنُ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَىٰ عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ

النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَىٰ فَخِذَيْهِ

وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ

قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، قَالَ: صَدَقْتَ

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ

قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ

قَالَ: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا

قَالَ: «**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَىٰ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**»

قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ

السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» [مسلم- ٨]

حديثٌ عظيمٌ قدرُه، كبيرٌ شأنُه، رفيعةٌ منزلته، ساميةٌ مرتبَتُه

حديثٌ جامعٌ لأصولِ الدين، وحاوٍ لآدابِ جَمَّة، وفوائدَ وافرة

هي قصةٌ... يحضُرها جبريلُ عليه السلام بهيئةِ رجلٍ سائل

جاءَ معلِّمًا هاديًا منيرًا

جبريلُ عليه السلام طيلةَ ثلاثة وعشرين عامًا كانَ خيرًا لنا، يتَنزَّل بالخيرَات، ويأتي بالرَّحَمات، وَيُقبِلُ بالبِشارات، ويجيء بالبَرَكات

أتىٰ جبريلُ عليه السلام إلىٰ النبي ﷺ والصَّحابةُ رضوانُ الله عليهم جلوسٌ حوله، فتقدَّمَ إلىٰ النبي ﷺ في أدبٍ جم، وخلقٍ رفيع، فجَلَسَ أمَامه جلسةَ المتعلم، وأسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه، وضع كفيه علىٰ فخذيه

رجلٌ غريب، وهيئةٌ غريبة!

لا يُرىٰ عليه أثر السفر ولا يعرفه من الصحابة رضي الله عنهم أحد!

يقبلُ علىٰ النبي ﷺ في هذا الأدب العالي فيَجْلسُ أمامه، كلٌّ

ذلك ليستأثر بعقولِ الصَّحابة رضوانُ اللهِ عليهم في ذلك الوقت، ويشدُّ انتباههم، فما سيقوله عظيم، وما سيسأله هي أمورٌ بالغة الأهمية، وعاليةُ القدر

بدَأَ ذلك الغريبُ يسأَلُ النبي ﷺ

والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ... يسْتمعُون وينْدَهِشون!

فَسَأله عن أركان الإسلام والإيمان والإحسان وهي مراتبُ الدين الثلاث

ثمَّ يسأَلُه عن الساعة وأماراتها، وهي مقدمة يوم الجزاءِ علىٰ الأعمال

وفي كلِّ ذلك يجيبه النبيُّ ﷺ ثم يصدقه هذا الرجل الغريب

عجبَ الصحابةُ الكرام رضوانُ اللهِ عليهِم، وشدَّ من تركيزِهم وانتبَاهِهم أكثر وأكثر

حتىٰ لمَّا فرغَ من أسئلته، وعقلَ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ذلك، وحفظوه، ووعوه، ولّىٰ عن المجلس

فجلَسَ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ برهةً من الوقت ثم قال النبي ﷺ يا عمر، أتدري من السائل؟

قالَ: اللهُ ورسولهُ أعلم

قال: فإنَّهُ جبريل أتاكم يعلمكم دينكم

يأتي جبريلُ عليه السلام بالوَحْيِ طيلة ثلاثة وعشرينَ عامًا

يتنزَّلُ بهذ الدِّينِ القَويم

والقرآنِ الكريم

علىٰ النبي العظيم ﷺ

ثمَّ يأتي جبريلُ عليه السلام في مجلِسٍ يحضُرهُ الصحابة رضي الله عنهم

يأتي حينَ يوشكُ...

الدين علىٰ الاكتمال

والنبيُّ ﷺ علىٰ الرتِحالِ من هذهِ الدَّار

بعدَ أن توطَّدت أوتادُ الإسلام، وظهَرَ دين الرحمن، وعَلَتْ كلمةُ الحق، ورُفعت رايات هذا الدين العظيم، وفُتحت مكة...

حينها يأتي جبريلُ عليه السلام أمَامَ الصَّحابة رضي الله عنهم يُؤكِّدُ لهم ما نزل به عليهم من سنواتٍ طويلة، يأتي ليقرر أصولَ الدين، ويذكِّرَ بأصولِ الإسلام، ويثبت دعائمَ هذا الدين القَويم

يأتي ليُعلِّمَ الصحابة مراتبَ الدِّين كلِّها، ثم يذكِّرُهم بضرورة

الاستعداد للآخرة، فهو يومُ الجزاء علىٰ كلِّ ما قدمناه في هذه الدنيا

يـأتي جبريـلُ عليه السلام يقـرر في هـذا الحـديثِ العظـيم عظمـة الإسلام!

فيـا لـهُ مـن ديـنٍ عظـيم حـينَ يـدعو الإنـسانَ إلـىٰ تزكيـةِ الـنفس بالالتجاء إلىٰ الله في الصَّلوات، وتزكيةِ المال بالزكاة، وزيادَةِ التقـوىٰ بالصيام

ما أعظمَ الدِّين حينَ يفرضُ الحج ليقرر مساواة كلِّ الخلق أمـامَ ربِّ العالمين، فلا صغير ولا كبير، ولا غنيّ ولا فقيرَ، كلهـم ضـيوف الرحمن أقبلوا علىٰ الكريم المنان، لا يتميز بعضُهم عن بعض

ما أعظمَ هذا الدِّين حينَ يهتمُّ بطهـارةِ القلـب، ونقـاءِ الـسَّريرة، فيرسخ أركان الإيمان

نؤمن بالله فيكون لهذهِ الحياة معنىٰ

نـؤمنُ بالملائكـة الكـرام، فنـؤمنُ بعظـيمِ خلقَـتِهم الدالَّـة علـىٰ عظيمِ قدرِ خالِقِهم سبحانه

نؤمنُ بالكُتُبِ كلِّها وما أنزَلَ اللهُ فيها من خيرٍ ونور

نـؤمنُ بكـلِّ الرُّسـل علـيهم الـسَّلام، ونعـرفُ عظـيم قـدرِهم، ونتقرَّبُ إلىٰ الله بحُبِّهم عليهم الصَّلاة والسَّلامُ أجمعين

نؤمنُ باليومِ الآخر، اليومُ الذي سيجازىٰ فيه كلّ إنسانٍ علىٰ عمله، فيعملُ العبدُ بالتزَوُّدِ لذاك اليومِ بخيرِ زاد

﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]

نؤمنُ بالقدر خيره وشرِّه فنرضىٰ ونصبرُ ونشكر

ما أعظم هذا الدين حين يجعلُ الإنسان يراقب الله فيعبده كأنه يراه، ويستشعر رؤية الله له فيُحسِنُ عبادَتَهُ لله، ويُحسِنُ معامَلتَهُ لعبادِ الله، فلا يظلم، ولا يطغىٰ، ولا يقترف الموبقات، أو يجترح المحرمات، بل يكونُ نقيَّ السَّريرة، كريمَ نفسٍ في التعامُل مع الأهل والعشيرة

ما أعظمّ هذا الدين حين أخفىٰ عنا يوم القيامة، ووقت الساعة، وجعل لها أماراتٍ، حتىٰ ينبه الغافل، ويذَكِّر اللاهي، ويبشِّر المؤمن

ما أعظمَ هذا الدِّين حينَ يهتمُّ بكلِّ مناحي الحياة، فلا يتركُ جانبًا مُغفلًا، ولا بابًا موصودًا، بل يفتحُ كل الأبواب، ويبيَّنُ كل الحقائق، ويرسخ كلَّ الدعائم، ويجيبُ عن كل الأسئلة الوجودية العظمىٰ

فمنْ حيثُ شاءَ المرء أن ينظرَ لهذا الدين يجدُه دينًا عظيمًا

عظيمٌ في رُقِيِّه

عظيمٌ في سُموِّه

عظيمٌ في تشريعاته

عظيمٌ في قِيَمِهِ وأخلاقه

عظيمٌ في مبادئه

عظيمٌ في تعامله

كالبدر حُسنًا وبهاءًا، وكالجواهر نضرة ووضاءة، عقدٌ فريدٌ مكتمل الجواهرِ الحسان، فكلُّ شيء في الدين عظيم

الإسلامُ عظيمٌ لعظمة الله الذي بيَّن أحكامه وشرائعه

عظيمٌ لعظمة هذا الرسول الكريم ﷺ الذي حَمَلهُ وأدَّاه

عظيمٌ لعظمةِ الملَكِ الذي أنزلَ الله به الدين جبريلُ عليه السلام

عظيمٌ لعظمةِ القرآن الذي يَحملُ معانيه

عظيمٌ لعالميَّته ورحمتِه للخلقِ كلِّهم

فهو مظلَّةٌ تظلل البشرية عن أفكارِ التَّطرُّف والغلو

وشجرةٌ باسقةٌ تجلس البشرية في ظلالها

ونهرٌ صافٍ تشربُ البشرية من مائه الزلال

آخرُ الأديان، وهوَ أعظمُها وأكمَلُها وأرحمُها

إنَّهُ الدين الذي ارتضاه الله ليكون خاتمَ الأديان، اختارَ له أعظمَ الرسل ﷺ، وأفضلَ الكُتب، وبه أكْملَ مسيرة وحي الله المُنزَّل لهدايةِ الخلقِ ورحمَتِهم

هذا الدِّينُ العظيم جاء به جبريلُ عليه السلام من عند الله غضًّا طريًّا، وما زال يكملُ بنيانه حتىٰ اكتمل ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]

دينٌ ارتضاه الله للبشريَّة، حملهُ إلينا جبريلُ عليه السلام

مع جبريل عليه السلام كانتِ البدايةُ المشرقة في غار حراء

ومع جبريل عليه السلام امتدت آفاقُ الرحلة ثلاثةً وعشرين عامًا مفعمَةً بالنور والإيمانِ والخيرِ والبركة

ومع جبريل عليه السلام اكتملَ هذا الدِّينُ رحمةً للعالمين

جاءَ جبريل عليه السلام في آخرِ الأمر يذكِّرُ الناس بأصولِ الإسلام، ودعائمِ الإيمان، ويدعوهم إلىٰ الاستعداد ليوم المعاد، والتزوُّد ليوم

القرار

يعلِّمُكم جبريلُ عليه السلام فلا تنسوا دروسه، ويذكِّركُم جبريل عليه السلام فلا تضيعوا وصاياه!

(١٦)

قد انقطع من السماء

المدينة النبوية، علىٰ غير عادتها.. هامدة

السكونُ يعمُّ المكان

شوارعُ المدينة يلُفّها الصمت

لا تكاد تسمع فيها إلا غمغمات[١] العابرين

الألمُ يسكنُ كل زاوية من زواياها

هي صارت اليوم قطعةَ أسىٰ

هي نفسها المدينة النبوية التي...

تهوي إِليها الأفئدة

وتُحِبُّها القلوب

ويفوحُ منها عبيرُ النبوة، وطهارةُ الإسلام

واليوم...

فقدَت رسولَ الله ﷺ بموته

---

(١) الغَمغمة والتَّغَمْغم: كَلَامٌ غَيرُ بيّن.

فأظلمت وأظلمَ منها كل شيء

ولئن كان الحزنُ بموت النّبي ﷺ قد بلغ بالمدينة وأهلَها مبلغًا عظيمًا، فإنَّ حاضنةَ النَّبي ﷺ أم أيمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[1] قد تراكمت عليها الأحزان، وعظُم بها المصاب، كيف لا...

وهي حَاضنته

وكانت بمنزلة أمّه

وكان النبيُّ ﷺ يعظِّمها ويجلُّها

فلما ماتَ ﷺ، وعمَّ الحزن والأسىٰ أرجاء المدينة النبوية

كانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أشدّ ما تكون حزنًا علىٰ فقده ﷺ

وكانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تعيش أيامًا ثقيلةً علىٰ قلبها

فقد كانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بشعور الأم المكلومة التي فقدت ابنها بعد أن عاشتْ السعادة والأنس معه

فحملت في قلبها أسىٰ الفراق، ولوعة الاشتياق

فيا الله...

---

(١) اسمها بركة بنت ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ورثها النبي ﷺ من أبيه فأعتقها حين تزوج خديجة. انظر: أسد الغابة (٦/ ٣٠٣).

كيفَ يكونُ شعورُ الفقدِ عند أمِّ أيمن رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وهي تودِّع قطعةً من قلبها؟ ونورًا شعّ في الدنيا كلِّها؟

يتقطع قلبها ألمًا، ويذوب فؤادها حزنًا وهيَ تسترجِع كلّ تلك الذكريات الحانيةِ مُنْذ صغره وحتىٰ وفاته ﷺ

هذه الأم الرؤوم...

كانتْ أسعد الناس حظًا بحضانتها لرسول الله ﷺ واليومَ تعيشُ أيامًا كئيبةً ثقيلةً لفقده بموته ﷺ، بعد أن ودَّعته البشرية وواراه تراب المدينة النبوية

لم يكن حزنُ أمِّ أيمن رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا فقط علىٰ موتِ النبي ﷺ، بل كان ابتئاسُ(١) قلبِها، وحرقةُ فؤادها لشيءٍ آخر فقدته فسحَّت(٢) أعينها بالبكاء لأجله

ففي الصحيح أن أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال لعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعد وفاة النبي ﷺ: «انْطَلِقْ بِنَا إِلىٰ أُمِّ أَيْمَنَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا نَزورُهَا، كَمَا كَانَ رَسُولُ

(١) الابتئاس هو الهمّ والحزن.
(٢) سحّ أي انصب.

اللهِ ﷺ يَزُورُهَا»

يا الله...

أفضل هذه الأمة أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يخرجان يجرّانِ خُطاهُما نحْوَ أمِّ أيمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تأسِّيًا بالنبي ﷺ، فيالها من صحبةٍ كريمة، ومحبَّةٍ في الله شريفة، لا تنقطع حتىٰ بالموت، بل يرعيان حقوق المودَّة والمحبَّة حتىٰ بعد موته فيزوران من كان يزوره ﷺ

يقول أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَلَمَّا انتهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ، فَقَالَا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ»، ظنَّ الحبيبان أنها لا تزالُ تبكي موته ﷺ فذكَّراها بأن ما عند الله خيرٌ له، فقَالَتْ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَكِنِّي أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءَ، فهَيَّجَتْهُمَا عَلَىٰ الْبُكَاءَ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا» [مسلم - ٢٤٥٤]

يا الله...

ذكَّرتهما بقصَّةٍ أخرىٰ مشْجية، انثالتْ عليهِم الذكريات، وتَتابعَتْ في مخيّلتهم الأحداث، اليوم ودّعوا أيضًا جبريل عليه السلام بعد رحلةٍ دامتْ أكثر من ثلاثة وعشرين عامًا

مع جبريل عليه السلام...

تنزّل الوحيُ طيلة هذه الأعوام، فلَكَمْ تعلَّمُوا منه، ولَكَمْ جاء بالوحي في وقت أشدّ ما يكونون فيه حاجة إلىٰ كلام الله ليتثبتوا، ولَكَمْ جاء بفرجٍ من عند الله، وها هو اليومَ ينقطعُ نزولُه عن هؤلاء المحبّين صحابة رسول رب العالمين

وها هو اليوم يَنْزوي بعيدًا عن أعينِ الصحابة، فلا يجدون له حسًّا ولا أثرًا

مع جبريل عليه السلام...

عاشوا لحظاتِ الوحي، لحظات الترقب حينَ تنزل بهم حادثةٌ فيهرعُون إلىٰ رسولِ الله ﷺ فلا يحكمُ بشيءٍ ﷺ، بل ينتظرُ جبريل يأتي بخبر السماء

وانقطاع جبريل بعد كلِّ هذه المدة يعني انقطاع الوَحْيِ منَ السَّماء انقطاعًا أبديًّا

رحلة طويلة من الأحداث...

كان الوحيُ فيها نورًا للمسلمين، كان جبريل عليه السلام يأتي به فتسكنُ نفوسُ المؤمنين، وتبتهجُ قلوبُ الصَّحابة بكلام رب العالمين

مع جبريل عليه السلام...

ابتدأ انبلاجُ فجرِ هذه الأمة بنزول الوحي، ومع جبريل عليه السلام نزلَ الهدىٰ، وهو الذي كان يتنزل بأمر الله، لا يفتر ولا يغيب، كل ذلك قد انقطَع فكان حقًّا علىٰ أم أيمن ومن معها رضي الله عنهم أن يسبلوا دموعهم وهم يعرفون أن الوحي لن ينزل بعد اليوم.

المحتويات

الصفحة	الموضوع
٩	(١) فأخذه فصرعه
١٧	(٢) اقرأ
٢٩	(٣) جبريل علىٰ صورته
٣٧	(٤) أتحب أن أريك آية
٤٥	(٥) فصليت معه
٥١	(٦) تواضع لربك
٥٧	(٧) أبشر بنورين
٦٣	(٨) يا محمد اشتكيت
٧٣	(٩) ما يبكيك
٨٧	(١٠) يباهي بهم الملائكة
٩٩	(١١) فيحبه جبريل
١٠٩	(١٢) يا جبريل اذهب
١١٩	(١٣) كان يلقاه
١٢٩	(١٤) عش ما شئت
١٣٩	(١٥) يعلمكم دينكم
١٥١	(١٦) قد انقطع من السماء